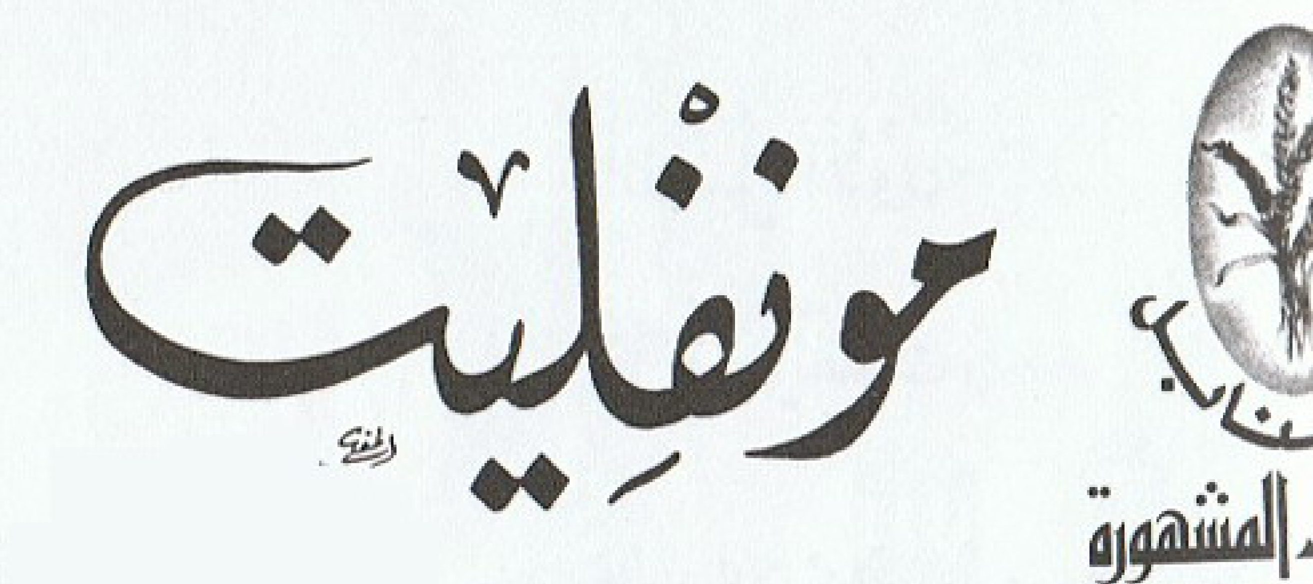
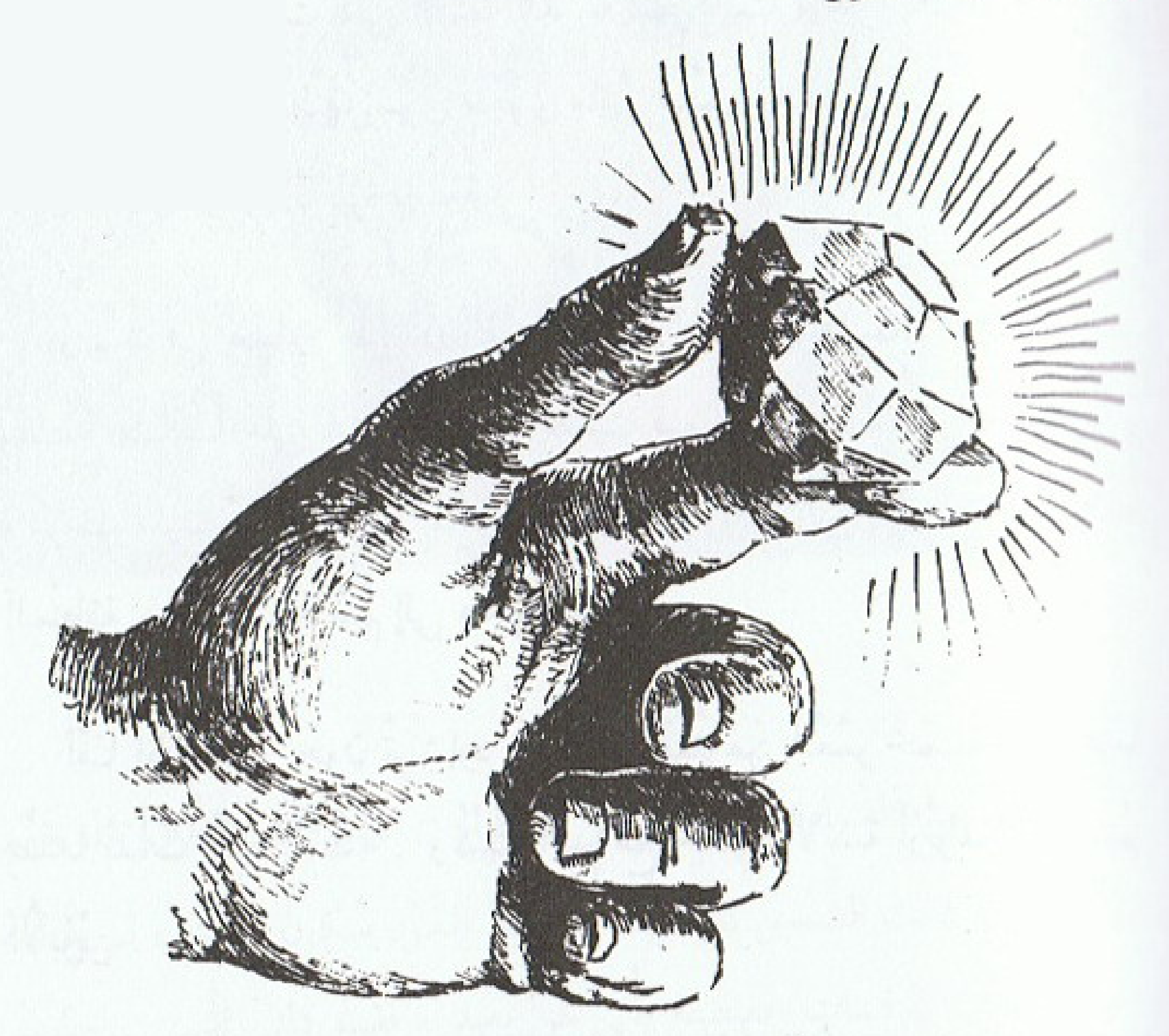

السنابل
الروايات المشهورة
مونفليت
حمدي
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net
Arabcomics.net







تأليف: ج. ميد فوكنر
إعداد: بهيّة كرَم
رسُوم: محمّد نبيل عبدالعزيز

مكتبة لبنان
بيروت

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٨٩ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٤٧-٢

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

الفَصْلُ الأَوَّلُ

قَرْيةُ مُونْفِلِيت

تَقَعُ قَرْيةُ مُونْفِلِيت عَلى الضِّفَّةِ الغَرْبِيَّةِ لِنَهْر فليت ، عَلى بُعْدِ نِصْفِ مِيل مِنَ البَحْرِ . ولَيْسَ النَّهْرُ سِوى مَجْرًى مائِيٍّ ضَيِّقٍ يَأْخُذُ في الاتِّساعِ ، بَعيدًا عَنِ القَرْيةِ ، لِيَكُونَ بُحَيْرةً واسِعةً .

وكُنْتُ في صِباي أَظُنُّ أَنَّ القَرْيةَ سُمِّيَتْ باسْمِ مُونْفِلِيت لِأَنَّ ضَوْءَ القَمَرِ يَسْطَعُ مُتَأَلِّقًا عَلى البُحَيْرةِ ، ثُمَّ عَلِمْتُ فِيما بَعْدُ أَنَّ اسْمَها الحَقيقيَّ هُوَ « مُوهُــونْفِلِيت » نِسْبةً إلى عائِلةِ مُوهُون العَريقةِ الَّتي كانَتْ تَقْطُنُ هٰذِهِ المِنْطَقةَ ، وحُرِّفَ الاسْمُ إلى « مُونْفِلِيت » .

أَمَّا أنا فَأُدْعَى جُون تْرِنْشارد ، وكُنْتُ أَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ خَمْسةَ عَشَرَ عامًا عِنْدَما بَدَأَتْ هٰذِهِ القِصَّةُ . وكُنْتُ أُقيمُ مَعَ خالَتي الآنِسةِ أَرْنُولد لِأَنِّي يَتيمُ الأَبَوَيْنِ .

تَبْدَأُ القِصَّةُ في شِتاءِ عامِ ١٧٥٧ م ، حِينَ كُنْتُ أَقْرَأُ كِتابًا عَنْ عَلاءِ الدِّينِ والمِصْباحِ السِّحْرِيِّ ، وكَيْفَ أَغْلَقَ السّاحِرُ عَلَيْهِ البابَ ، لِأَنَّ عَلاءَ الدِّينِ رَفَضَ أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِ المِصْباحَ . ذَكَّرَتْني القِصَّةُ بِتِلْكَ الأَحْلامِ المُزْعِجةِ الَّتي يَجِدُ فِيها المَرْءُ نَفْسَهُ داخِلَ حُجْرةٍ صَغيرةٍ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا فَشَيْئًا .



تَوَقَّفْتُ عَنِ القِراءةِ وخَرَجْتُ إلى الشّارِعِ . ولَمْ يَكُنِ الظَّلامُ قَدْ خَيَّمَ بَعْدُ ، وإِنْ كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ غَرَبَتْ . وعَمَّ الكَوْنَ سُكونٌ عَميقٌ ، لَمْ يَقْطَعْهُ سِوى صَوْتِ طَرَقاتٍ خَفيفةٍ يَأْتي مِنْ بَعيدٍ ، فَقَدْ كانَ راتْسي ، حارِسُ المَقابِرِ ، يَقومُ بِحَفْرِ اسْمِ أَحَدِ المَوْتى عَلى شاهِدِ قَبْرٍ .

كانَ راتْسي مُنْهَمِكًا في عَمَلِهِ ، ولَمّا رَآني أُطِلُّ عَلَيْهِ مِنْ خِلالِ فُتْحةٍ بِبابِ بَيْتِهِ ، ناداني قائِلًا : « أَهْلًا يا جُون ! اُدْخُلْ وأَمْسِكْ لي المِصْباحَ . »

داڤيد بْلُوك

السِّنُّ ١٥ عامًا ـ قُتِلَ بِرَصاصةٍ
أُطْلِقَتْ مِنَ السَّفينةِ « إليكتور »
في ٢١ يونيه (حَزيران) سَنَةَ ١٧٥٧ م

رَأيْتُهُ يَنْقُشُ فَوْقَ الشّاهِدِ صُورةً لِسفينَتَيْنِ يَتَقاتَلُ رِجالُهُما ، وَتَحْتَ الصُّورةِ نُقِشَتْ هٰذِهِ ٱلعِبارةُ :

كانَ ٱلكُلُّ يَتَحَدَّثُ عَنْ داڤيد ٱلمِسْكينِ ـ ٱلابْنِ ٱلوَحيدِ لِإلْزڤير بْلُوك صاحِبِ نُزُلِ « وايْنط » .

في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ كانَ يَتِمُّ جَمْعُ ضَريبةٍ باهِظةٍ لِلْمَلِكِ عَنِ ٱلبَضائِعِ ٱلوارِدةِ لِلْبِلادِ ، فَكَثُرَ ٱلمُهَرِّبونَ ٱلَّذينَ كانُوا يَتَهَرَّبونَ مِنْ دَفْعِها . وَكانَتِ ٱلسُّفُنُ ٱلمُحَمَّلةُ بِٱلبَضائِعِ تُفْرِغُ حُمولَتَها في أماكِنَ غَيْرِ مَطْرُوقةٍ عَلى الشَّواطِئِ ، وَمِنْها تُحْمَلُ ٱلبَضائِعُ في صَناديقَ وَبَراميلَ إلى مَخابِئَ داخِلَ ٱلبِلادِ . وَكانَ مُحَصِّلو الضَّرائِبِ ٱلَّذينَ تُعَيِّنُهُمْ حُكومةُ ٱلمَلِكِ يَعْمَلونَ عَلى إيقافِ عَمَلِيّاتِ التَّهْريبِ هٰذِهِ ، يُساعِدُهُمْ في ذٰلِكَ رِجالُ خَفَرِ السَّواحِلِ .

كانَ إلْزڤير أَحَدَ ٱلمُهَرِّبينَ ، وَكانَتْ صُورةُ إحْدَى السَّفينَتَيْنِ ٱلمَنْقوشَتَيْنِ

عَلى ٱلقَبْرِ هِيَ صُورةَ سَفينَتِهِ ، عَلى حِينَ كانَتِ ٱلأُخْرَى صُورةَ سَفينةِ خَفَرِ السَّواحِلِ .

وَكانَ أَحَدُ أَثْرياءِ ٱلقَرْيةِ وَيُدْعَى ماسْكيو قَدْ تَناوَلَتْهُ ٱلإشاعاتُ ٱلَّتي تَقولُ إنَّهُ هُوَ ٱلَّذي كَشَفَ لِرِجالِ خَفَرِ السَّواحِلِ خُطَّةَ ٱلمُهَرِّبينَ ، وَإنَّهُ كانَ مَعَ خَفَرِ السَّواحِلِ عَلى ظَهْرِ السَّفينةِ حِينَ قُتِلَ داڤيد .

وَقَفَ راتْسي بَعيدًا يَتَأَمَّلُ عَمَلَهُ ثُمَّ قالَ : « كَمْ هُوَ مُحْزِنٌ أَنْ يُقْتَلَ صَبِيٌّ في مُقْتَبَلِ عُمْرِهِ . لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ ثَلاثةً مِنَ ٱلمُهَرِّبينَ في السِّجْنِ يُنْتَظَرُ إعْدامُهُمْ يَوْمَ ٱلاثْنَيْنِ ٱلمُقْبِلِ ؛ لِذٰلِكَ سَأُلَوِّنُ ٱلعَلَمَ بِاللَّوْنِ ٱلأَحْمَرِ وَسَأَطْلي السَّفينَتَيْنِ بِاللَّوْنِ ٱلأَسْوَدِ . وَٱلآنَ هَيّا بِنا إلى النُّزُلِ لِنُواسِيَ إلْزڤير ، فَهُوَ غارِقٌ في بَحْرٍ عَميقٍ مِنَ ٱلحُزْنِ وَٱلأَسَى . »

قُلْتُ : « هَيّا . » رَغْمَ أَنَّني كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ خالَتي لا تُوافِقُ عَلى دُخولي نُزُلَ « وايْنط » .

دَخَلْنا النُّزُلَ وَكانَتْ أَرْضُهُ مَفْروشةً بِالرَّمْلِ ، وَرُصَّتْ حَوْلَ جُدْرانِها كَراسٍ خَشَبيّةٌ ، وَفي جانِبِهِ ٱلأَقْصَى كانَتِ النّارُ ٱلمُشْتَعِلةُ في ٱلمِدْفَأةِ تَبْعَثُ الضَّوْءَ ٱلوَحيدَ في ٱلحُجْرةِ .

جَلَسَ إلْزڤير قُرْبَ ٱلمِدْفَأةِ ، وَكانَ مُمْتَلِئَ ٱلجِسْمِ قَوِيًّا . وَكانَتْ مَعْرِفَتي بِهِ قَليلةً ، وَكانَ ٱلكَثيرونَ يَتَعَجَّبونَ مِنَ احْتِفاظِهِ بِإدارةِ النُّزُلِ ٱلَّذي لَمْ يَكُنْ

يُدِرُّ عَلَيْهِ رِبْحًا كافيًا .

الْتَفَتَ إِلَيْنا إِلْزِقير بِغَضَبٍ ، وَانْتَهَرَ راتْسي قائِلاً : « لِماذا أَحْضَرْتَ هٰذا الصَّبِيَّ إِلى هُنا ؟ إِنَّهُ ما زالَ طِفْلاً . »

أَجابَ راتْسي : « جُون لَيْسَ طِفْلاً ، كَما أَنَّهُ في سِنِّ داقيد ، وَقَدْ كانَ مَعي يُعاوِنُني في نَحْتِ شاهِدِ ٱلْقَبْرِ . »

قالَ إِلْزِقير : « لا بَأْس . إِنَّ داقيد يَرْقُدُ ٱلآنَ في سَلامٍ ، وَلٰكِنِ ٱلوَيْلُ كُلَّ ٱلوَيْلِ لِمَنْ قَتَلُوهُ ؛ فَلَنْ يَعْرِفوا السَّلامَ بَعْدَ ٱلآنَ أَبَدًا . » وَكانَ دُونَ شَكٍّ يَعْني بِذٰلِكَ السَّيِّدَ ماسْكيو .

اِنْهَمَكَ الرِّجالُ في ٱلحَديثِ . وَبَعْدَ بُرْهَةٍ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ إِلْزِقير قائِلاً : « لَقَدْ حانَ وَقْتُ رُجوعِكَ لِلْبَيْتِ يا بُنَيَّ . إِنَّ ذا اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ يَهيمُ في الطُّرُقاتِ لَيْلاً ، وَلا أَحْسَبُكَ تُريدُ لُقْياهُ . »

كانَ ذُو اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ هٰذا ـ وَهوَ أَحَدُ رِجالِ أُسْرَةِ مُوهُون ـ مَدْفونًا في قَبْرٍ مُنْعَزِلٍ . وَكانَتْ أَقاويلُ النّاسِ بِشَأْنِهِ كَثيرَةً ، فَقَدْ قيلَ إِنَّهُ لا يَسْتَقِرُّ في قَبْرِهِ ، بَلْ يَهيمُ في اللَّيْلِ بِاسْتِمْرارٍ بَحْثًا عَنْ ماسَةٍ ثَمينَةٍ فَقَدَها في حَياتِهِ . وَلَمْ يَكُنْ يَجْرُؤُ عَلى ٱلاقْتِرابِ مِنَ ٱلقَبْرِ ، بَعْدَ ٱلغُروبِ ، غَيْرُ عَدَدٍ قَليلٍ مِمَّنْ لا يَخافونَ مُلاقاتِهِ . وَقَدْ وُجِدَ رَجُلٌ مَقْتولٌ وَمُلْقًى في الطَّريقِ صَبيحَةَ يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ الصَّيْفِ ، وَاعْتَقَدَ ٱلجَميعُ أَنَّ ذا اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ هوَ الَّذي قَتَلَهُ .

كانَ ذُو اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ـ أَوْ جُون مُوهُون ـ رَئيسًا لِلسِّجْنِ الَّذي وُضِعَ فيهِ ٱلمَلِكُ تْشارْلز . وَكانَ لَدى ٱلمَلِكِ ماسَةٌ كَبيرَةٌ وَثَمينَةٌ ، طَلَبَها مِنْهُ جُون مُوهُون نَظيرَ أَنْ يُسَهِّلَ لَهُ ٱلهَرَبَ . فَسَلَّمَهُ ٱلمَلِكُ ٱلماسَةَ ، وَلٰكِنَّ جُون مُوهُون حَنِثَ بِوَعْدِهِ ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ وَأَعادَهُ إِلى السِّجْنِ .

وَعِنْدَما ٱكْتُشِفَتِ ٱلمُؤامَرَةُ ، صَدَرَ ٱلأَمْرُ بِسَجْنِ جُون مُوهُون ، إِلاَّ أَنَّهُ فَرَّ هارِبًا بَعْدَ أَنْ خَبَّأَ ٱلجَوْهَرَةَ . وَيُقالُ إِنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ ٱلعُثورِ عَلَيْها فيما بَعْدُ ، أَوْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ ٱلوُصولِ إِلى ٱلمَكانِ الَّذي خَبَّأَها فيهِ ، وَلِذا كانَتْ رُوحُهُ تَهيمُ في ٱلأَرْضِ لَيْلاً سَعْيًا وَراءَ ٱلماسَةِ ٱلمَفْقودَةِ .

كُنْتُ كَثيرَ التَّرَدُّدِ عَلى فِناءِ ٱلمَقابِرِ ، حَيْثُ كانَ مَنْظَرُ ٱلبَحْرِ يَبْدو رائِعًا مِنْ هُناكَ . وَلٰكِنَّني كُنْتُ أَخافُ السَّيْرَ لَيْلاً في هٰذا ٱلمَكانِ . وَفي ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ في إِحْدى اللَّيالي ـ وَكُنْتُ أَسْتَدْعي الطَّبيبَ لِخالَتي ـ أَبْصَرْتُ ضَوْءًا يَتَحَرَّكُ بَيْنَ القُبورِ . إِنَّهُ لَمِنَ ٱلغَريبِ أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ ٱلمَقْبَرَةَ في مِثْلِ ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ !

اَلفَصْلُ الثَّاني

اَلمُوهُون يَتحَرَّكُون

مَضَتْ بِضْعةُ أيَّامٍ عَلى زِيارَتي لِنُزُلِ ٱلوايْنط ساءَ خِلالَها ٱلجوُّ وَهَطَلَتْ أمْطارٌ غَزيرةٌ سَبَّبَتْ فَيضانَ النَّهْرِ ، وَغَمَرَتِ ٱلمِياهُ جُزْءًا كَبيرًا مِنَ ٱلقَرْيَةِ . وَلٰكِنَّ ٱلمِياهَ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ سُورِ ٱلمَقابِرِ ، فَبَقِيَتْ أَرْضُ ٱلفِناءِ جافَّةً . وَفي يَوْمِ أَحَدٍ قُبَيْلَ ٱلغُروبِ ، كُنْتُ أسيرُ مَعَ راتْسي ، فَرَأَيْنا تَجَنُّبًا لِلْخَوْضِ في الشَّوارِعِ ٱلمَغْمورةِ بِٱلمِياهِ ـ أَنْ نَعْبُرَ ٱلفِناءَ لِلْوُصولِ إلى مَنْزِلَيْنا . وَٱلتَقَيْنا بِالسَّيِّدِ غليني ، وَوَقَفْنا بِجانِبِ أَحَدِ ٱلقُبورِ نَتَجاذَبُ مَعَهُ ٱلحَديثَ . وَكانَ ٱلقَبْرُ مُرْتَفِعًا مِثْلَ مِنْضَدةٍ بَيْنَ شَجَرَتَيْنِ .

مالَتِ الشَّمْسُ نَحْوَ ٱلمَغيبِ ، وَظَهَرَتْ في السَّماءِ سُحُبٌ غَريبةُ الشَّكْلِ تَتَخَلَّلُها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ ٱلحَمْراءُ ، فَشَعَرْتُ بِرَهْبَةٍ جَعَلَتْني أُمْسِكُ بِذِراعِ راتْسي لِأُخْبِرَهُ بِعَزْمي عَلى ٱلعَوْدَةِ لِلْمَنْزِلِ . وَفَجْأَةً سَمِعْتُ صَوْتًا قَيَّدَني في مَكاني ، وكانَ صادِرًا مِنْ باطِنِ ٱلأَرْضِ ، فَصَرَخَتِ ٱلعَجوزُ تكر ، الَّتي كانَتْ تَقِفُ مَعَنا ، قائِلةً : « يا إلٰهي ! إنَّهُمْ ٱلموهُون ! ٱلمُوهُون يَتَحَرَّكُونَ ! » ثُمَّ فَرَّتْ هارِبةً .

قالَ السَّيِّدُ غليني : « ما هٰذا ٱلهُراءُ ؟ » وَبَقِيَ في مَكانِهِ كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ ، وَعَلَّلَ سَبَبَ الصَّوْتِ بِوُجودِ قُبورٍ يَبْلُغُ اتِّساعُ بَعْضِها مِساحةَ غُرَفٍ

فَسيحةٍ تَضُمُّ رُفاتَ أُسْرةٍ بِأَكْمَلِها ، وَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيْها ٱلمِياهُ وَسَبَّبَتْ تَحَرُّكَ صَناديقِ ٱلمَوْتى ٱلخَشَبِيَّةِ فَأَحْدَثَتْ هٰذِهِ ٱلأَصْواتَ الَّتي سَمِعْناها .

قالَ راتْسي : « قَدْ تَكونُ عَلى حَقٍّ يا سَيِّدُ غليني ، وَلٰكِنَّهُمْ يَقولونَ : « عِنْدَما يَتَحَرَّكُ ٱلمُوهُون فَهٰذا يَعْني ٱلمَوْتَ لِشَخْصٍ ما . »

قالَ غليني : « إذا تَحَرَّكَ ٱلمُوهُون فَقَدْ يَعْني ذٰلِكَ أَشْياءَ عِدَّةً ، وَلٰكِنَّهُمْ في هٰذِهِ ٱلمَرَّةِ لَمْ يَتَحَرَّكوا ، بَلْ حَرَّكَتْهُمُ ٱلمِياهُ . »

وَعُدْتُ لِلْمَنْزِلِ بِسُرْعةٍ ، وَكُنْتُ أُفَكِّرُ أَثْناءَ الطَّريقِ في جُون مُوهُون ، أَوْ ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ ، وَفي ٱلماسةِ الَّتي خَبَّأَها . رُبَّما خَبَّأَها في قَبْرِهِ ، وَرُبَّما كانَ لا يَزالُ يَبْحَثُ عَنْها ، لِذٰلِكَ فَإِنَّهُ كُلَّما جَنَّ اللَّيْلُ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ باحِثًا عَنِ ٱلماسةِ الَّتي مِنْ أَجْلِها باعَ شَرَفَهُ !

وَكُلَّما سَيْطَرَتْ عَلَيَّ هٰذِهِ ٱلأَفْكارُ أَسْرَعَتْ خُطايَ . تُرى هَلْ كانَ تَجْوالُهُ مَقْصورًا عَلى ٱلمَقابِرِ ، أَمِ امْتَدَّ إلى الطُّرُقِ وَٱلحاراتِ ؟ ثُمَّ تَذَكَّرْتُ الرَّجُلَ الَّذي وُجِدَ قَتيلًا !

في ٱليَوْمِ التّالي ـ يَوْمِ ٱلاثْنَيْنِ ـ عَزَمْتُ عَلى زِيارةِ ٱلمَقْبَرةِ ثانِيةً لِأَتَأَكَّدَ : هَلْ يَتَحَرَّكُ ٱلمُوهُون فِعْلًا ؟ وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ قَبْلَ ٱلغُروبِ بِقَليلٍ ، أَيْ قَبْلَ أَنْ تَكْسُوَ ٱلحُمْرةُ السَّماءَ وَتَتَراكَمَ الظِّلالُ فَتَصْعُبَ الرُّؤْيةُ خِلالَها .

عِنْدَما وَصَلْتُ إلى ٱلقَبْرِ ٱلمُرْتَفِعِ وَجَدْتُ راتْسي وَإلْزِقير هُناكَ . وَكانَ

راتْسي يَضَـعُ أُذُنَـهُ عَلى ٱلقَبْرِ مُنْصِتًا . تُرى ماذا كانَ يَسْمَعُ ؟ وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ ٱلغَضَبِ حِينَ رَآني ، فَهَمَمْتُ بِالرُّجوعِ وَلٰكِنَّهُ قالَ : « جُون ! ماذا تَفْعَلُ هُنا في هٰذا ٱلوَقْتِ ٱلمُتَأَخِّرِ ؟ »

قُلْتُ : « أَتَيْتُ لِأَسْتَطْلِعَ أَخْبارَ ٱلمُوهُون . »

رَدَّ راتْسي قائِلًا : « لَيْسَ لَدَيَّ ما أُخْبِرُكَ بِهِ ، وَأَنا لا أَعْتَقِدُ في مِثْلِ هٰذِهِ ٱلخُزَعْبَلاتِ . لَقَدْ جَرَفَتِ ٱلمِياهُ ٱلتُّرْبَةَ مِنْ تَحْتِ ٱلحِجارَةِ ، وَيَجِبُ أَنْ أُعيدَ ٱلأُمـورَ لِنِصـابِها . هَلَّا تَكَرَّمْتَ وَمَرَرْتَ بِمَنْزِلي لِتُخْبِرَهُمْ بِأَنِّي سَأَتَأَخَّرُ هٰذِهِ ٱللَّيْلَةَ ، لِأَنِّي مُضْطَرٌّ أَنْ أَقومَ ٱلآنَ بِهٰذا ٱلعَمَلِ . »

أَيْقَنْتُ أَنَّهُ يُريدُ إِبْعادي عَنْ تِلْكَ ٱلمِنْطَقَةِ ، فَذَهَبْتُ لِمَنْزِلِهِ ، كَما طَلَبَ مِنِّي . وَعِنْدَما تَرَكْتُ بابَهُ رَأَيْتُهُ مُقْبِلًا عَبْرَ ٱلطَّريقِ ، وَضَحِكَ عِنْدَما رَآني .

اَلفَصْلُ ٱلثّالِثُ

تَحْتَ ٱلأَرْضِ

كُنْتُ مَشْغوفًا بِٱلجُلوسِ فَوْقَ ذٰلِكَ ٱلقَبْرِ ٱلمِنْضَدِيِّ ٱلعالي حَيْثُ يُمْكِنُني أَنْ أَرى ٱلبَحْرَ وَأَرْقُبَ ٱلسُّفُنَ . كانَ يَبْدو مِنْ كَثْرَةِ آثارِ ٱلأَقْدامِ فَوْقَ ٱلطَّريقِ ٱلمُؤَدِّي لِلْبَحْرِ أَنَّ هٰذِهِ ٱلبُقْعَةَ مُحَبَّبَةٌ لِغَيْري أَيْضًا . وَكُنْتُ قَدِ ٱنْقَطَعْتُ عَنْ زِيارَةِ تِلْكَ ٱلمِنْطَقَةِ عِدَّةَ أَسابيعَ بَعْدَ مُقابَلَتي لِراتْسي وَإِلْزِقير هُناكَ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْها .

وَفي أَحَـدِ ٱلأَيّامِ جَلَسْتُ في مَكـاني ٱلمُفَضَّـلِ أَتَـطَلَّعُ إِلى ٱلبَحْـرِ ، وَاسْتَمْتِعُ بِدِفْءِ ٱلشَّمْسِ ، وَٱلهُدوءِ ٱلَّذي شَمَلَ ٱلكَوْنَ وَلَمْ يَتَخَلَّلْهُ سِوى صَوْتِ جُورْج ٱلعَجوزِ يَشْدو أَثْناءَ عَمَلِهِ عَلى سَفْحِ ٱلتَّلِّ .

وَبِرَغْمِ شِدَّةِ ٱلرِّياحِ كانَ ٱلجَوُّ صَحْوًا مُنْذُ هُطولِ ٱلأَمْطارِ ٱلغَزيرَةِ ٱلَّتي حَدَّثْتُكُمْ عَنْهـا ، مِمّـا ساعَـدَ عَلى أَنْ تَجِفَّ ٱلأَرْضُ ، وَأَنْ تَظْهَرَ تَشَقُّقاتٌ كَثيرَةٌ ، بَدا ٱلمَكـانُ مَعهـا وَكَأَنَّهُ قِدْرٌ فَخّارِيَّةٌ رَديئَةُ ٱلصُّنْعِ . كَذٰلِكَ وَقَعَتِ ٱنْخِسافاتٌ في ٱلأَرْضِ في بَعْضِ ٱلأَماكِنِ تَخَلَّفَتْ عَنْها حُفَرٌ وَتَجاويفُ .

عِنْدَما بَلَغَتِ ٱلسّاعَةُ ٱلرّابِعَةُ فَكَّرْتُ في ٱلعَوْدَةِ إِلى ٱلبَيْتِ ، وَلٰكِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا صادِرًا مِنْ تَحْتي ـ مِنَ ٱلقَبْرِ ٱلَّذي كُنْتُ أَجْلِسُ فَوْقَهُ ـ وَرَأَيْتُ ٱلأَتْرِبَةَ تَنْهارُ

مِنْ تَحْتِ ٱلحِجارةِ تاركةً فَجْوةً كَبيرةً تَتَّسِعُ لِدُخولِ شَخْص زاحِفًا على قَدَمَيْه وَيَدَيْه .

وَكَأَيِّ غُلامٍ في مِثْلِ سِنّي تَغَلَّبَ عَلَيْهِ ٱلفُضولُ وَحُبُّ ٱلاسْتِطْلاعِ وَٱلكَشْفِ ، قَفَزْتُ مِنْ فَوْقِ ٱلمَقْبَرةِ ، وَمَدَدْتُ قَدَمَيَّ داخِلَ ٱلحُفْرةِ ، فَإذا بي أَسْقُطُ فَوْقَ تُرْبةٍ هَشَّةٍ ، وَوَجَدْتُني أَقِفُ مُنْتَصِبًا تَحْتَ ٱلقَبْرِ .

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هُناكَ حُجْرةً تَحْتَ ٱلقَبْرِ ٱنْهارَ سَقْفُها فَأَحْدَثَ ٱلفَجْوةَ الَّتي رَأَيْتُها . وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما أَدْرَكْتُ خَطَئي ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَمامي سِرْدابًا طَويلًا قَليلَ ٱلانْحِدارِ . وَطَرِبْتُ لِأَنّي شَعَرْتُ أَنَّني قَدْ وَجَدْتُ مَخْبَأَ الماسةِ . وَرُحْتُ أَحْلُمُ وَأَتَخَيَّلُ مَدَى سَعادَتي وَثَرائي في ٱلمُسْتَقْبَلِ بَعْدَ أَنْ أَفوزَ بِٱلماسةِ . وَأَدْهَشَني ما وَجَدْتُ عَلَيْهِ حالَ السِّرْدابِ مِنْ نَظافةٍ وَحُسْنِ تَهْوِيةٍ ، وَآثارُ ٱلأَقْدامِ ٱلكَثيرةُ الَّتي ٱنْطَبَعَتْ على تُرْبةِ السِّرْدابِ الطَّرِيَّةِ .

مَشَيْتُ في السِّرْدابِ مادًّا ذِراعَيَّ أَمامي حَتّى لا أَصْطَدِمَ في سَيْري بِشَيْءٍ . وَأَخَذَ الضَّوْءُ يَضْعُفُ شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّما تَقَدَّمْتُ ، حَتّى لَمْ أَعُدْ أَرى غَيْرَ قَبَسٍ خافِتٍ مِنَ النّورِ يَنْبَعِثُ خَلْفي مِنَ ٱلحُفْرةِ الَّتي دَخَلْتُ مِنْها . أَمّا أَمامي فَكانَ الظَّلامُ دامِسًا ، مِمّا جَعَلَني أَشْعُرُ بِٱلخَوْفِ ؛ لِذا خَرَجْتُ بِسُرْعةٍ إلى ٱلخَلاءِ .

ثُمَّ عُدْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ إلى مَنْزِلِ خالَتي جَرْيًا ، فَقَدْ كانَ وَقْتُ ٱلعَشاءِ قَدْ حانَ . وَعَزَمْتُ في قَرارةِ نَفْسي أَنْ أَعودَ لِزيارةِ ذٰلِكَ السِّرْدابِ وَمَعي شَمْعةٌ تُنيرُ لي الطَّريقَ .

الفَصْلُ الرّابِعُ

مَخْبَأُ ٱلمُهَرِّبين

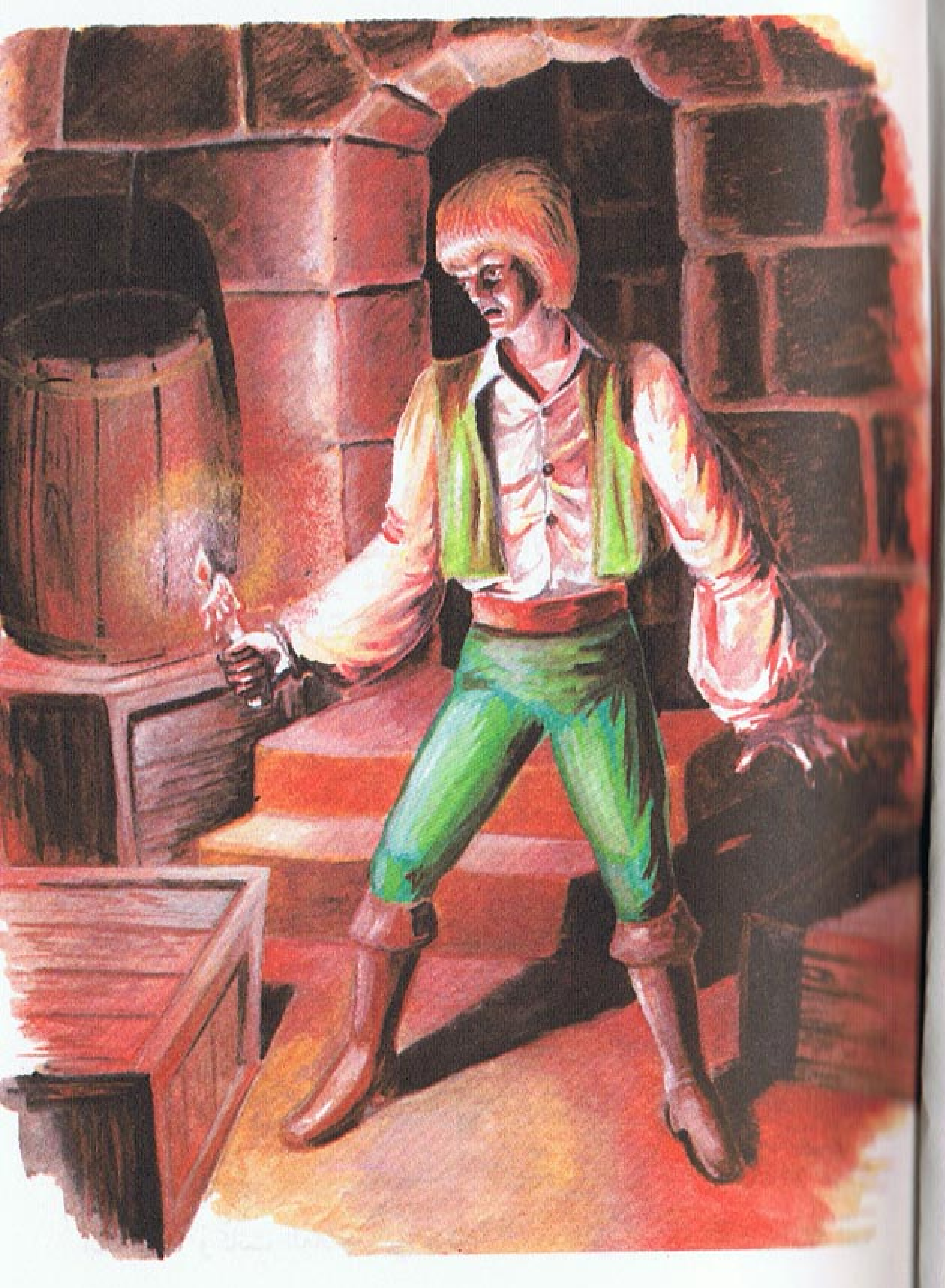
غَضِبَتْ خالَتي لِتَأَخُّري ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَنْطِقْ بِكَلِمةٍ أَثْناءَ ٱلعَشاءِ وَلَمْ أُخْبِرْها بِشَيْءٍ عَنِ اكْتِشافي .

بَعْدَ ٱلعَشاءِ هَبَّتْ واقِفةً وَقالَتْ : « جون ! لَقَدْ تَكَرَّرَتْ عَوْدَتُكَ مُتَأَخِّرًا في ٱلمَساءِ ، وَهٰذا لا يَجوزُ لِمَنْ هُوَ في سِنِّكَ ؛ لِذا لَنْ تَخْطُوَ خارِجَ عَتَبةِ ٱلمَنْزِلِ بَعْدَ غُروبِ الشَّمْسِ في ٱلمُسْتَقْبَلِ . إنَّ ٱلفِراشَ لِأَمْثالِكَ هُوَ المَكانُ ٱلمُلائِمُ في اللَّيْلِ . وَٱلآنَ هَيّا لِأَقْرَأَ لَكَ . »

جَلَسَتْ وَأَخَذَتْ تَقْرَأُ عَنْ تَصَرُّفاتِ أَطْفالٍ مِثالِيّينَ وَعَنْ حُسْنِ ٱلخُلُقِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلقِيَمِ . وَكُنْتُ في شُغْلٍ شاغِلٍ عَمّا تَقولُ : كُنْتُ أُفَكِّرُ في ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ ، وَفي ٱلماسةِ وَفي السِّرْدابِ . وَقُمْتُ وَحَيَّيْتُ خالَتي ثُمَّ ذَهَبْتُ لِلْفِراشِ ، وَكانَتْ تِلْكَ آخِرَ مَرَّةٍ أَنامُ فيها على ذٰلِكَ ٱلفِراشِ .

اِسْتَلْقَيْتُ على سَريري دونَ أَنْ أَخْلَعَ مَلابِسي ، وَبَدَأْتُ أَنْتَظِرُ . اِنْتَظَرْتُ طَويلًا ، حَتّى تَأَكَّدْتُ أَنَّ خالَتي غارِقةٌ في سُباتٍ عَميقٍ .

خَلَعْتُ حِذائي ، وَبِهُدوءٍ وَحَذَرٍ نَزَلْتُ الدَّرَجَ . وَأَخَذْتُ شَمْعةً ، ثُمَّ تَسَلَّلْتُ خارِجَ ٱلمَنْزِلِ . كانَ ٱلقَمَرُ ساطِعًا ، وَكانَ أَهْلُ ٱلقَرْيةِ كُلُّهُمْ نِيامًا ،



وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ ضَوْءٍ سِوَى ما كانَ يَنْبَعِثُ مِنْ نافِذَةٍ في النُّزُلِ .

سِرْتُ في الظَّلامِ وَاقْتَرَبْتُ بِحَذَرٍ مِنَ النَّافِذَةِ ٱلْمُضاءَةِ مُحاوِلاً أَنْ أَرَى ما يَدورُ بِالدَّاخِلِ . وَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، وَلٰكِنِّي سَمِعْتُ أَصْواتًا كَثيرةً . وَتَساءَلْتُ عَمَّا يَتَحَدَّثونَ في هٰذا ٱلْوَقْتِ ٱلْمُتَأَخِّرِ مِنَ اللَّيْلِ .

اِنْتابَني ٱلْخَوْفُ عِنْدَما وَصَلْتُ إلى ٱلْمَقْبَرَةِ . كانَ ٱلْوَقْتُ وَٱلْمَكانُ مُناسِبَيْنِ لِظُهورِ الشَّبَحِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ رُؤْيَتَهُ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى ، وَلٰكِنَّ الظِّلالَ ٱلْمُحيطَةَ بِالْمَكانِ ظَلَّتْ ساكِنَةً مِنْ حَوْلي ، وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى صَوْتِ وَقْعِ قَدَمي عَلى ٱلْحَشائِشِ .

نَظَرْتُ إلى ٱلْفَجْوَةِ وَوَقَفْتُ حائِرًا : هَلْ أَسْتَمِرُّ في بَحْثي أَمْ أَعودُ ؟ وَبَيْنَما أَنا كَذٰلِكَ ، أَبْصَرْتُ عِنْدَ الشَّاطِئِ قارِبًا ، وَعَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ ذٰلِكَ ٱلْقارِبِ يَرْسو في ٱلْخَليجِ ، وَفي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ كَهٰذا . ثُمَّ أَبْصَرْتُ نورًا أَزْرَقَ يَنْبَعِثُ مِنَ ٱلْقارِبِ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ يَحْمِلُ ٱلْمُهَرِّبينَ . وَرَأَيْتُ بَحَّارَتَهُ يُرْسِلونَ إشارَةً لِشَخْصٍ ما ، أَوْ لِأَشْخاصٍ عَلى الشَّاطِئِ لِيُعْلِنوا اِسْتِعْدادَهُمْ ، فَأَلْقَيْتُ نَظْرَةً حَوْلي ثُمَّ دَخَلْتُ ٱلْفَجْوَةَ .

أَمْسَكْتُ الشَّمْعَةَ وَرَفَعْتُها أَمامي وَسِرْتُ في السِّرْدابِ غارِقًا في بَحْرٍ مِنَ ٱلأَحْلامِ . كُنْتُ أَحْلُمُ بِالْماسَةِ وَما سَتُدِرُّهُ عَلَيَّ مِنْ ثَراءٍ ، وَما سَتَجْلُبُهُ مِنْ سَعادَةٍ . وَلاحَظْتُ عَلى ٱلأَرْضِ آثارَ أَقْدامٍ أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ في ٱلْمَرَّةِ

آلأولى ، فخفْتُ أنْ يكونَ أحدٌ غيري قدْ سبقَني إلى مكانِ آلماسةِ وآسْتولى عليْها . وبِالرَّغمِ مِنْ أنَّ آلمسافةَ لمْ تتعدَّ آلعِشْرينَ مِتْرًا فإنَّها بدَتْ لي وكأنَّها آلافُ آلأمْتارِ . وأخيرًا وصَلْتُ لِجدارٍ حجَريٍّ أُقيمَ كحاجزٍ بعَرْضِ السِّرْدابِ . وكانَ بهِ فتْحةٌ تؤدِّي إلى قاعةٍ خلْفَهُ أدْركْتُ أنَّها مكانُ دفْنِ أُسْرةِ موهُون .

دخلْتُ مِنَ آلفُتْحةِ فوجدْتُني في قاعةٍ فسيحةٍ تزيدُ قليلاً في اتِّساعِها عَنْ حُجْرةِ آلفصْلِ في آلمدْرسةِ ، ولٰكِنَّها تقِلُّ ارْتِفاعًا عَنْها . فقدْ كانَ السَّقْفُ لا يَعْلو أكْثرَ مِنْ مِتْريْنِ ونِصْفِ آلمِترِ عَنِ آلأرْضِ آلمُغطَّاةِ بِالرَّمْلِ . وفي نِهايةِ آلقاعةِ كانَ هُناكَ درَجٌ ، على حِينَ احْتوَتْ جوانِبُها على صَناديقَ لِلْموْتى وُضِعَ كُلٌّ مِنْها في تجْويفٍ خاصٍّ بِآلجِدارِ . وفي وسَطِ آلحُجْرةِ رأيْتُ عديدًا مِنَ آلبراميلِ والصَّناديقِ آلمُخْتلِفةِ آلحجْمِ ، وكُلُّها ولا شكَّ تحْتوي على بَضائعَ مُهرَّبةٍ .

وهٰكذا بدَلاً مِنِ اكْتِشافِ آلكنْزِ الَّذي كُنْتُ أتطلَّعُ إليْهِ اكْتشفْتُ مَخْبأَ آلبضائعِ آلمُهرَّبةِ داخلَ مقْبرةِ آلموهون . حِينئذٍ أدْركْتُ أنَّ ما سمِعْناهُ عصْرَ يوْمِ آلأحدِ السَّالِفِ لمْ يكُنْ صوْتَ تحرُّكِ صناديقِ آلموْتى تحْتَ تأثيرِ آلمِياهِ فقطْ ، بلْ كانَ تحرُّكَ صَناديقِ آلبِضاعةِ وآلبراميلِ كذٰلِكَ . وكانَ حُضورُ راتْسي في آليوْمِ التَّالي ـ لا شكَّ ـ لِلاطْمِئْنانِ على أنَّ أحدًا لمْ يكْتشِفِ آلمخْبأَ . وكانتِ آلعلامةُ الَّتي تركَتْها آلمِياهُ على آلجِدارِ تصِلُ تقْريبًا إلى

ارْتِفاعِ نِصْفِ مِترٍ مِنَ السَّقْفِ .

عاودَتْني أحْلامي عَنِ آلماسةِ وكيْفَ أصِلُ إليْها ، فتفحَّصْتُ صَناديقَ آلموْتى بِدقَّةٍ ، ولمْ يكُنْ على أكْثرِها أسْماءٌ . وبدَأْتُ أيْأسُ مِنَ آلعُثورِ على ضالَّتي ، وهمَمْتُ بِآلعوْدةِ ، ولٰكِنَّني سمِعْتُ وقْعَ أقْدامٍ مُقْبلةٍ وصوْتَ أشْخاصٍ يتحدَّثونَ عَنْ بُعْدٍ ، فتملَّكني آلهلَعُ ووقفْتُ مكاني ثابِتًا بِضْعَ دقائِقَ مضَتْ كأنَّها ساعاتٌ . وحتَّى يوْمِنا هٰذا ، وبِالرَّغْمِ مِنْ مُرورِ أعْوامٍ عديدةٍ على تِلْكَ اللَّحْظةِ ، ما زِلْتُ أذْكُرُ كيْفَ وقفْتُ في مكاني وكأنَّ الشَّللَ قدْ أصابَني ؛ فكُنْتُ كثعْلبٍ قُبِضَ عليْهِ في جُحْرِهِ . ولطالما سمِعْتُ عمَّا كانَ يفْعلُهُ آلمُهرِّبونَ بِمَنْ يكْتشِفُ أسْرارَهُمْ أوْ يطَّلِعُ على أحْوالِهِمْ ، وتذكَّرْتُ ذٰلِكَ آلمِسْكينَ الَّذي وُجِدَتْ جُثَّتُهُ في آلمقْبرةِ ، وقيلَ إنَّهُ الْتقى بِذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ في اللَّيْلِ .

أفقْتُ مِنْ جُمودي عِنْدَما سمِعْتُ أحدَهُمْ يقْفِزُ إلى السِّرْدابِ ، ونظرْتُ حوْلي أبْحثُ عَنْ مفرٍّ ، ولٰكِنْ دونَ جدْوى . ثُمَّ سمِعْتُ الرَّجُلَ الَّذي في أسْفلِ آلفجْوةِ يتحدَّثُ إلى آخرينَ في آلفِناءِ . وفجْأةً لمحْتُ صُنْدوقَ ميِّتٍ مُنْعزِلاً عَنْ بقيَّةِ الصَّناديقِ في أعْلى آلجِدارِ ، وكانَ يرْتفِعُ حوالَى مِتْريْنِ عَنِ آلأرْضِ . وسرْعانَ ما تسلَّقْتُ إلى الصُّنْدوقِ واخْتبأْتُ بيْنَهُ وبيْنَ آلجِدارِ ، راقِدًا على جنْبي أُراقِبُ ضوْءَ الشُّموعِ الَّتي كانَ يحْمِلُها الرِّجالُ ، والَّذي أخذَ يقْتربُ مِنِّي شيْئًا فشيْئًا .

سَمِعْتُ راتسي يَقولُ : « سَأَسُدُّ ٱلفَجْوةَ بِحَيْثُ أَمْحو أَثَرَها تَمامًا . »

فَقالَ آخَرُ : « حَذارِ أَنْ يَراكَ أَحَدٌ وَ أَنْتَ تَفْعَلُ ذٰلِكَ . »

وَكَثُرَ الرِّجالُ في ٱلغُرْفَةِ وَ قالَ أَحَدُهُمْ : « كُنْتُ في دُورْشِسْتَر مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ، وَسَمِعْتُهُمْ يَقولونَ إِنَّهُمْ سَيَقومونَ بِإِعْدامِ ٱلمُهَرِّبينَ ٱلَّذينَ قُبِضَ عَلَيْهِمْ في الصَّيْفِ . وَكانَ ماسْكيو أَكْثَرَ النّاسِ حَماسَةً وَتَمَسُّكًا بِضَرورَةِ ٱلإِعْدامِ . »

قالَ أَحَدُهُمْ : « آهٍ ! ماسْكيو ! كَمْ أَوَدُّ أَنْ أُلاقيَهُ وَ أَقْتُلَهُ ! »

وَقالَ آخَرُ : « بِوُدّي أَنْ أَلْقاهُ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ لِأُلَقِّنَهُ دَرْسًا لَنْ يَنْساهُ . »

اِرْتَفَعَ صَوْتُ إِلْزِفير قائِلًا : « كَلّا ! كَلّا ! ماسْكيو هٰذا مِن نَصيبي أَنا . هَلْ نَسيتُم أَنَّهُ قَتَلَ ابْني ؟ دَعوهُ لي وَحْدي . »

كادَ يُغْمى عَلَيَّ نَتيجَةَ فَسادِ ٱلهَواءِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلمَوْجودينَ ، وَكَثْرَةِ الشُّموعِ ٱلمُضاءَةِ ، بِٱلإِضافَةِ إِلى الرَّوائِحِ ٱلكَريهَةِ .

شَعَرْتُ بِأَلَمٍ حادٍّ في جَنْبي بِسَبَبِ رُقادِيَ الطَّويلِ عَلى جانِبٍ واحِدٍ . وَبَيْنَما أَنا أَنْقَلِبُ إِلى ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ ، سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَذْكُرُ اسْمي قائِلًا :

« ذٰلِكَ ٱلغُلامُ ابْنُ تْرِنْشارد كَثيرًا ما يَجْلِسُ عَلى شاهِدِ ٱلقَبْرِ ٱلعالي يَتَطَلَّعُ إِلى ٱلبَحْرِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنَ ٱلقارِبِ جالِسًا هُناكَ وَقْتَ ٱلغُروبِ . وَرَغْمَ أَنّي

لَمْ أُمَيِّزْ مَلامِحَ وَجْهِهِ لِبُعْدِ ٱلمَسافَةِ فَإِنَّني عَرَفْتُهُ ، وَإِنّي لَأَخْشى أَنْ يَكونَ جاسوسًا عَلَيْنا يُدْلي بِمَعْلوماتِهِ لِماسْكيو . »

رَدَّ عَلَيْهِ شَخْصٌ آخَرُ مِنْ قَرْيَةٍ قَريبَةٍ قائِلًا : « أَنْتَ عَلى حَقٍّ يا هٰذا . كَثيرًا ما رَأَيْتُ ذٰلِكَ ٱلغُلامَ يَحومُ حَوْلَ مَنْزِلِ ماسْكيو - بَيْنَما كُنْتُ أُراقِبُ ٱلمَنْزِلَ - وَكانَ يَسيرُ وَهُوَ شارِدُ الذِّهْنِ كَمُحِبٍّ وَلْهانَ . »

كانَتْ تِلْكَ هِيَ ٱلحَقيقَةُ ، فَكَثيرًا ما كُنْتُ أَسيرُ في لَيالي الصَّيْفِ في الطَّريقِ الصّاعِدِ إِلى التَّلِّ خَلْفَ مَنْزِلِ ماسْكيو ، وَذٰلِكَ لِسَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُما أَنَّ الطَّريقَ نَفْسَهُ كانَ بَديعًا ، وَ ثانيهِما أَنَّهُ كانَتْ هُناكَ فُرْصَةٌ أَنْ أَحْظى بِرُؤْيَةِ غْريس ابْنَةِ ماسْكيو . وَكُنْتُ أَجْلِسُ عَنْ بُعْدٍ وَأُراقِبُها وَهِيَ تَجوبُ أَنْحاءَ ٱلحَديقَةِ . وَأَحْيانًا كُنْتُ أَمُرُّ بِٱلقُرْبِ مِنْ نافِذَتِها وَأَرْفَعُ يَدي لَها بِالتَّحِيَّةِ . وَذاتَ يَوْمٍ عَرَفْتُ أَنَّها مَريضَةٌ ، فَتَرَكْتُ ٱلمَدْرَسَةَ وَجَلَسْتُ طولَ ٱليَوْمِ فَوْقَ ٱلحاجِزِ أَنْظُرُ إِلى ٱلمَنْزِلِ ٱلَّذي رَقَدَتْ فيهِ طَريحَةَ ٱلفِراشِ . نَعَمْ كُنْتُ أَتَرَدَّدُ كَثيرًا عَلى ذٰلِكَ ٱلمَكانِ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ لِأَنّي كُنْتُ جاسوسًا ، وَإِنَّما مِنْ أَجْلِ غْريس .

دَفَعَ راتْسي عَنّي التُّهْمَةَ قائِلًا : « لا ، لا ! ابْنُ تْرِنْشارد غُلامٌ طَيِّبٌ ، وَكَثيرًا ما حَدَّثَني عَنْ شَغَفِهِ بِٱلجُلوسِ في هٰذِهِ ٱلبُقْعَةِ لِأَنَّهُ يَرى مِنْها ٱلبَحْرَ كُلَّهُ . »

وَأَدْهَشَني إِلْزِفير بِقَوْلِهِ : « جون تْرِنْشارد غُلامٌ شُجاعٌ نَبيلٌ . كَمْ أَتَمَنّى لَوْ

كانَ آبْني ! إنَّهُ في نَفْسِ سِنِّ داڤيد ، وَأنا واثِقٌ أنَّهُ سَيُصْبِحُ بَحّارًا ماهِرًا عِنْدَما يَشِبُّ . »

وَأَشاعَتْ كَلِماتُهُ هٰذِهِ عَلى بَساطَتِها الطَّرَبَ وَالسُّرورَ في نَفْسي ، فَقَدْ كانَتْ بِها رَنَّةُ صِدْقٍ وَإِخْلاصٍ . وَكانَ لِإِلْزِقير عِنْدي مَكانَةُ حُبٍّ وَتَقْديرٍ ، وَكَمْ حَزِنْتُ عِنْدَما سَمِعْتُ نَبَأَ مَقْتَلِ آبْنِهِ .

شَعَرْتُ بِرَغْبَةٍ جامِحَةٍ في أَنْ أَقْفِزَ وَأُناديَ : « هٰأَنَذا ! » وَلٰكِنّي تَمالَكْتُ نَفْسي ، وَبَقيتُ حَيْثُ أَنا دُونَ حَراكٍ .

كانَ الرِّجالُ قَدْ فَرَغوا مِنْ إِحْضارِ الصَّناديقِ ، وَجَلَسوا يَتَجاذَبونَ أَطْرافَ آلحَديثِ ، ثُمَّ بَدَأَ أَحَدُهُمْ يُغَنّي فَقالَ إِلْزِقير : « صَهٍ أَيُّها آلغَبِيُّ ! إِنَّ صَوْتَكَ كافٍ لِأَنْ يُوقِظَ آلقَرْيَةَ بِأَسْرِها . »

فَقالَ راتْسي : « لَو اسْتَيْقَظوا فَسَيَظُنّونَ أَنَّ ذا اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ يَسْتَنْجِدُ بِالْمُوهُونِ لِيُساعِدوهُ في آلبَحْثِ عَنِ آلماسَةِ . »

وَعَمَّ الصَّمْتُ بُرْهَةً ، وَكانَ واضِحًا أَنَّ إِلْزِقير هُوَ رَئيسُ تِلْكَ آلجَماعَةِ . ثُمَّ قالَ أَحَدُهُمْ : « إِنَّ إِلْزِقير عَلى حَقٍّ ، فَلَقَدْ تَأَخَّرَ آلوَقْتُ ، فَلْنَرْجِعِ آلآنَ إِلى آلقارِبِ . »

الفَصْلُ آلخامِسُ

سَجينُ آلمَقْبَرَةِ

ذَهَبَ الرِّجالُ ، وَبَدَأَتْ أَضْواءُ الشُّموعِ الَّتي يَحْمِلونَها تَخْفُتُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَكانَ وَقْعُ أَقْدامِهِمْ يَتَلاشَى مَعَ ابْتِعادِهِمْ . وَصِرْتُ وَحْدي ، وَحْدي مَعَ آلمَوْتَى في صَناديقِهِمْ يُحيطونَ بي مِنْ كُلِّ جانِبٍ ! وَظَلَلْتُ أَسْمَعُ حَديثَ الرِّجالِ مُدَّةً طَويلَةً ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ بَعْضَهُمْ ما زالَ في آخِرِ السِّرْدابِ ، فَقَدْ كانوا يَتَشاوَرونَ في كَيْفِيَّةِ تَرْميمِ آلفَجْوَةِ بِحَيْثُ لا يَكْتَشِفُها أَحَدٌ . وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى تَرْكِ مَكاني ما دُمْتُ أَسْمَعُ صَوْتًا .

وَلَمّا سَكَتَتِ آلأَصْواتُ نَهَضْتُ ، وَقَرَّرْتُ آلعَوْدَةَ لِلْمَنْزِلِ دُونَ اسْتِكْمالِ بَحْثي ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ وَاشْتَقْتُ لِفِراشي . وَلٰكِنّي اكْتَشَفْتُ أَنَّ دُخولَ مَخْبَئي أَسْهَلُ مِنَ آلخُروجِ مِنْهُ ، فَقَدْ كانَ الصُّنْدوقُ الَّذي احْتَمَيْتُ وَراءَهُ بالِيًا هَشًّا ، فَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى الصُّعودِ فَوْقَهُ . وَلا أَدْري ما الَّذي حَدَثَ بِالضَّبْطِ ، فَقَدْ وَجَدْتُ نَفْسي وَقَدْ سَقَطْتُ وَالشَّمْعَةَ عَلى آلأَرْضِ ، فَمَدَدْتُ يَدي لِأَلْتَقِطَها ، وَأَمْسَكْتُ بِالصُّنْدوقِ لِأَسْتَنِدَ عَلَيْهِ ، فَإِذا بِيَدي تَخْتَرِقُهُ وَإِذا بي أَقَعُ ثانِيَةً عَلى آلأَرْضِ وَسْطَ كَوْمَةٍ مِنَ التُّرابِ وَقِطَعِ آلخَشَبِ آلمُحَطَّمَةِ ، وَفي نَفْسِ آلوَقْتِ أَطْبَقَتْ يَدي عَلى شَيْءٍ صُلْبٍ صَغيرٍ داخِلَ الصُّنْدوقِ دُونَ أَنْ أَدْرِيَ كُنْهَهُ .



اِلْتَقَطْتُ الشَّمْعةَ وَعَلى ضَوْئِها تَفَحَّصْتُ ما بِيَدي ، فَوَجَدْتُهُ عُلْبَةً صَغيرةً فِضِّيَّةً ، وَغَمَرَني ٱلفَرَحُ إِذِ اعْتَقَدْتُ أَنَّني وَجَدْتُ ٱلماسةَ ، وَخاصَّةً أَنَّ الصُّنْدوقَ الَّذي رَقَدْتُ بِجِوارِهِ كانَ يَضُمُّ رُفاتَ ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ ، وَكانَتِ ٱلعُلْبةُ مُدَلَّاةً مِنْ عُنُقِه !

فَتَحْتُ ٱلعُلْبَةَ بَعْدَ جَهْدٍ ، وَكَمْ كانَتْ صَدْمَتي عِنْدَما لَمْ أَجِدْ بِداخِلِها غَيْرَ وَرَقةٍ صَغيرةٍ مَطْويَّةٍ . وَلٰكِنْ رُبَّما كانَتْ تِلْكَ ٱلوَرَقَةُ تَكْشِفُ مَكانَ ٱلماسةِ .

وَعِنْدَما اقْتَرَبْتُ مِنَ الشَّمْعَةِ رَأَيْتُ عَلَيْها بِضْعةَ أَسْطُرٍ جاءَ فيها :

قَدْ يَحْيا ٱلإِنْسانُ ثَمانينَ عامًا ؛
وَتَقْطَعُ قَدَماهُ دَرْبَ الدُّموعِ ؛
قُمْ وَانْهَلْ مِنْ بِئْرِ ٱلمُتْعةِ وَٱلهَناءِ
فَٱلمَوْتُ يَأْتي مِنَ الشَّمالِ أَوِ
ٱلجَنوبِ ، في الظَّهيرةِ أَوِ ٱلمَساءِ

وَكانَتْ مُذَيَّلةً بِإِمْضاءِ جُون مُوهُون . وَكانَتْ بَعْضُ ٱلكَلِماتِ تَبْدَأُ بِأَحْرُفٍ كَبيرةٍ وَ ٱلباقي كُلُّه مَكْتوبٌ بِخَطٍّ صَغيرٍ .

وَهٰكَذا اِنْتَهَتْ أَحْلامي . وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَعودَ لِلْمَنْزِلِ رَغْمَ فَشَلي في ٱلعُثورِ على ٱلماسةِ . وَعَلَّقْتُ ٱلعُلْبَةَ حَوْلَ عُنُقي وَهَمَمْتُ بِٱلعَوْدةِ . وَما إِنْ وَصَلْتُ إِلى آخِرِ السِّرْدابِ حَتَّى وَجَدْتُ راتْسي قَدْ سَدَّ ٱلفَجْوةَ وَغَطَّاها بِٱلحِجارةِ . وَانْطَفَأَتِ الشَّمْعةُ . وَأَصْبَحْتُ في حالةٍ يُرْثَى لَها مِنَ ٱلخَوْفِ وَ ٱلانْزِعاجِ . وَجَلَسْتُ أَنْتَظِرُ بُزوغَ ٱلفَجْرِ ، آمِلًا أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ إِزالةِ ٱلأَتْرِبةِ

وَالْأَحجارِ على ضَوْءِ ما يَنْفُذُ إِلَيَّ مِنْ أَشِعَّةِ النَّهارِ .

كُنْتُ مُتْعَبًا فغَلَبَني النُّعاسُ وَنِمْتُ ، وَلَمْ أَدْرِ كَمْ مِنَ الْوَقْتِ نِمْتُ ؟ وَلٰكِنِّي عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ كانتِ الدُّنْيا لا تَزالُ مُظْلِمةً ، وَلَمْ أَشْعُرْ بِالانْتِعاشِ كما يَجِبُ أَنْ يَكونَ بَعْدَ نَوْمٍ طَويلٍ . وَرَفَعْتُ بَصَري إلى أَعْلى فَرَأَيْتُ بَصيصًا مِنَ النُّورِ يَتَخَلَّلُ الحِجارَةَ فَوْقي ، فَأَدْرَكْتُ أَنِّي نِمْتُ يَوْمًا بِأَكْمَلِه ، ذٰلِكَ أَنَّ الضَّوْءَ النَّافِذَ إِلَيَّ لَمْ يَكُنْ سِوى ضَوْءِ الشَّمْسِ الغارِبةِ ، الأَمْرُ الَّذي جَعَلَني أَشْعُرُ بِالفَزَعِ لِأَنَّ ذٰلِكَ كانَ يَعْني أَنْ أَمْضِيَ لَيْلَةً أُخْرى في المَكانِ نَفْسِه .

بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالجُوعِ ، فَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَناوَلْتُ في الأَرْبَعِ وَالعِشْرينَ ساعةً الماضِيةِ أَيَّ طَعامٍ . كَذٰلِكَ شَعَرْتُ بِالعَطَشِ وَحاوَلْتُ أَنْ أُزيحَ الحِجارةَ بِأَصابِعي فَوَجَدْتُها قَدْ جَفَّتْ وَثَبَتَتْ في مَكانِها . وَبَعْدَ حَوالَى ساعةٍ مِنَ المُحاوَلاتِ المُضْنِيةِ ارْتَمَيْتُ على الأَرْضِ وَقَدْ تَلاشَى آخِرُ بَصيصٍ مِنَ الضَّوْءِ وَعَمَّ ظَلامٌ حالِكٌ .

غَطَّيْتُ عَيْنَيَّ بِذِراعَيَّ حَتَّى لا أَرى ما حَوْلي ، وَلَبِثْتُ بُرْهةً طَويلةً على تِلْكَ الحالِ ، ثُمَّ هَبَبْتُ واقِفًا أَصْرُخُ بِأَعْلى صَوْتي طالِبًا النَّجْدةَ مُناديًا راتْسي وَالزِّقير وَغليني وَلٰكِنْ دُونَ جَدْوَى .

حاوَلْتُ ثانِيةً أَنْ أُزيلَ الحِجارةَ ، وَلٰكِنْ جانَبَني التَّوْفيقُ ، فَسَلَّمْتُ أَمْري لِلّٰه ، وَنِمْتُ . وَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ أَدْرَكْتُ أَنَّ شَمْسَ اليَوْمِ التَّالي قَدْ أَشْرَقَتْ . وَحاوَلْتُ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثةِ أَنْ أَفْتَحَ الفَجْوةَ لِأَخْرُجَ وَلٰكِنِّي فَشِلْتُ ، وَاسْوَدَّتِ الدُّنيا في عَيْنَيَّ ، وَاعْتَراني دُوارٌ مُخيفٌ وَوَقَعْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ .

الفَصْلُ السَّادِسُ

في نُزُلِ الوايْنَط

أَفَقْتُ فَوَجَدْتُ نَفْسي راقِدًا فَوْقَ فِراشٍ نَظيفٍ في غُرْفةٍ تَغْمُرُها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ . حَمْدًا لَكَ يا إِلٰهي على نِعْمَتِكَ ! ما أَحْلى ضَوْءَ الشَّمْسِ !

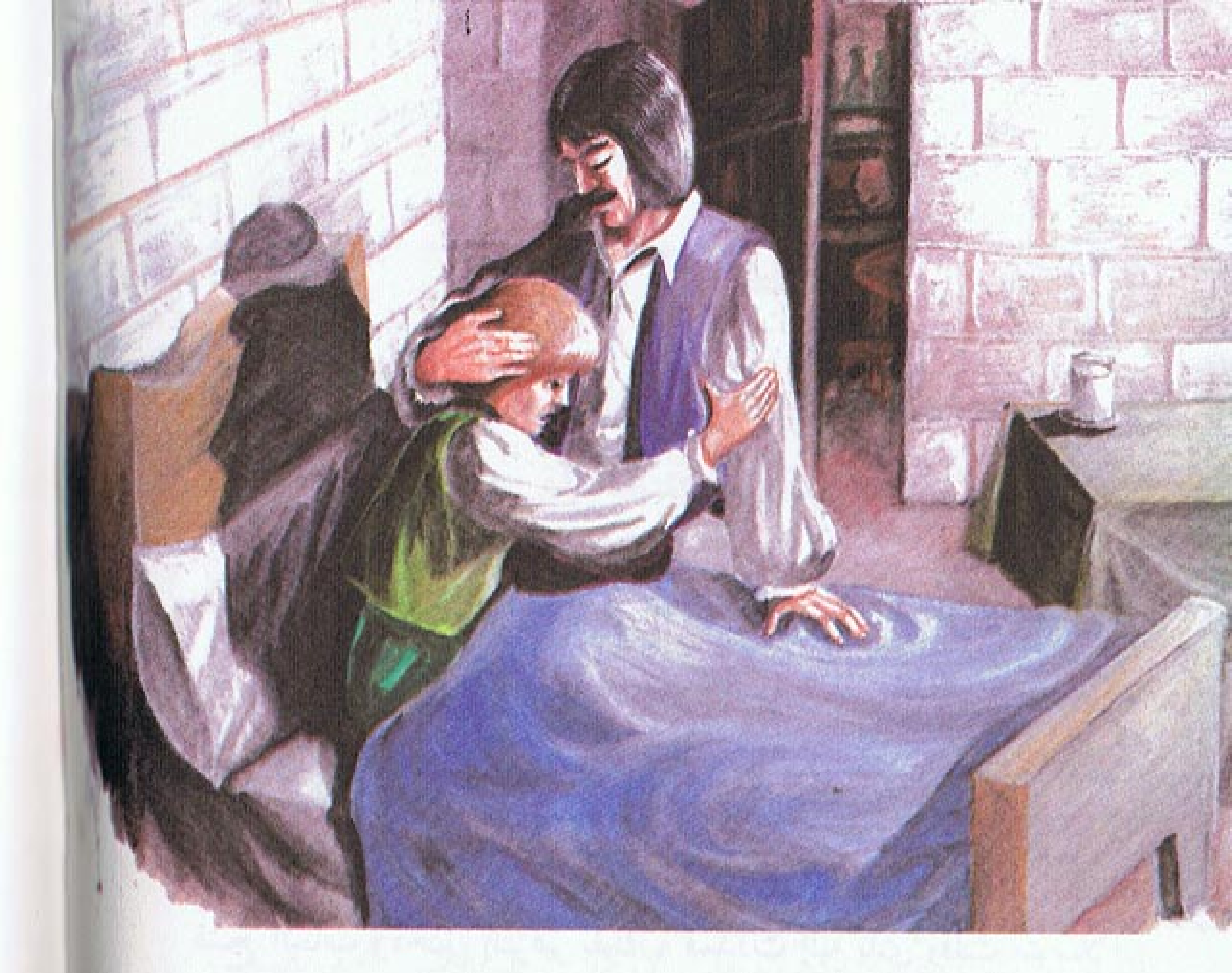
ظَنَنْتُ أَنِّي في فِراشيَ المُعْتادِ في مَنْزِلِ خالَتي ، وَأَنَّ كُلَّ ما مَضى لَمْ يَكُنْ سِوى حُلْمٍ أَوْ كابوسٍ . وَحاوَلْتُ النُّهوضَ فَلَمْ أَقْدِرْ ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِالمَرَضِ وَالضَّعْفِ ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِوُجودِ شَيْءٍ ما حَوْلَ عُنُقي . وَعِنْدَما مَدَدْتُ يَدي وَجَدْتُ العُلْبَةَ ، وَحينَئِذٍ أَيْقَنْتُ أَنَّ كُلَّ ما مَرَّ بي كانَ حَقيقةً لا حُلْمًا .

فُتِحَ البابُ وَدَخَلَ الزِّقير بْلُوك ، فَمَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدي وَقُلْتُ مُتَوَسِّلًا :
« أَرْجوكَ أَنْقِذْني ، أَرْجوكَ . »

فَرَبَّتَ على رَأْسي بِعَطْفٍ وَقالَ : « اهْدَأْ يا فَتى وَلا تَخَفْ ، فَلَنْ يُؤْذِيَكَ أَحَدٌ . خُذِ اشْرَبْ . »

ناوَلَني كُوبًا مِنَ اللَّبَنِ السَّاخِنِ . وَأَخْبَرَني وَأَنا أَشْرَبُهُ بِأَنِّي مَوْجودٌ في النُّزُلِ . وَلَمْ يَزِدْ على ذٰلِكَ ، بَلْ أَمَرَني أَنْ أَنامَ ثانِيةً . وَوَعَدَ أَنْ يُوافِيَني بِباقي الأَخْبارِ فيما بَعْدُ .

مَضَتْ عَشَرَةُ أَيَّامٍ أَوْ أَكْثَرُ قَبْلَ أَنْ أَتَماثَلَ لِلشِّفاءِ وَأَسْتَرِدَّ عافِيَتي . وَكانَ



إلْزِقير طوالَ تِلْكَ ٱلْمُدَّةِ يُعامِلُني بِكُلِّ مَحَبَّةٍ وَحَنانٍ ، كَما لَوْ كانَ أُمًّا تَرْعَى طِفْلَها .

كانَ السَّيِّدُ غلِيني قَدْ لاحَظَ ، في أَثْناءِ انْحِباسي في ٱلْمَقْبَرةِ ، تَغَيُّبي عَنِ ٱلْمَدْرَسةِ ، فَذَهَبَ يَسْأَلُ عَنّي خالَتي ؛ فَأَخْبَرَتْهُ بِأَنّي قَدْ هَرَبْتُ وَأَنَّها لا تَعْلَمُ لي مَقَرًّا . فَذَهَبَ إِلى راتْسي وَكانَ هُوَ ٱلآخَرُ يَجْهَلُ مَكاني . وَرَجَّحَ ٱلْجَميعُ أَنّي قَدْ هَرَبْتُ فَوْقَ ظَهْرِ سَفينةٍ عابِرةٍ .

وَفي نَفْسِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ٱلَّذي سَأَلَ فيهِ غلِيني عَنّي قالَ أَحَدُهُمْ في النُّزُلِ إِنَّهُ سَمِعَ أَصْواتًا عالِيَةً صادِرةً مِنَ ٱلْمَقابِرِ وَإِنَّهُ ظَنَّها صُراخَ ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ .

عِنْدَما سَمِعَ إِلْزِقير ذٰلِكَ أَيْقَنَ أَنَّ شَخْصًا ما قَدْ أُغْلِقَ عَلَيْهِ السِّرْدابُ وَأَصْبَحَ سَجينًا ، فَذَهَبَ مَعَ راتْسي يَسْتَطْلِعُ ٱلأَمْرَ . وَهُناكَ وَجَداني في حالةٍ تَقْرُبُ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَحْضَراني لِلنُّزُلِ .

حَضَرَ راتْسي لِزِيارَتي عِدَّةَ مَرّاتٍ وَقالَ لي مَرَّةً : « اِسْمَعْ يا جون ! لَيْسَ هُناكَ أَحَدٌ غَيْري وَغَيْرُ إِلْزِقير يَعْلَمُ أَنَّكَ اكْتَشَفْتَ سِرَّ ٱلْمَخْبَإِ . فَإِيّاكَ ، إِيّاكَ أَنْ تُخْبِرَ أَحَدًا . » أَمّا إِلْزِقير فَكانَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ أَنّي لَنْ أَبوحَ بِالسِّرِّ لِذا لَمْ يَقُلْ لي شَيْئًا .

بَعْدَ أَنْ تَماثَلْتُ لِلشِّفاءِ ذَهَبْتُ إِلى مَنْزِلِ خالَتي ، وَلَمْ تَكُنْ قَدْ حَضَرَتْ لِزِيارَتي في النُّزُلِ قَطُّ أَوْ حَتّى اسْتَفْسَرَتْ عَنّي أَثْناءَ مَرَضي . فَقابَلَتْني بِجَفاءٍ وَغِلْظةٍ وَقالَتْ : « عُدْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ . اُغْرُبْ عَنْ وَجْهي ، وَعُدْ إِلى النُّزُلِ حَيْثُ تُحِبُّ أَنْ تَعيشَ . » وَفاضَتْ عَيْنايَ بِالدُّموعِ ، وَأَدَرْتُ وَجْهي وَتَرَكْتُ ٱلْبَيْتَ ٱلَّذي عَرَفْتُهُ ، وَلَمْ أَعْرِفْ غَيْرَهُ مُنْذُ نَشْأَتي .

عِنْدَما وَصَلْتُ إِلى النُّزُلِ وَأَخْبَرْتُ إِلْزِقير بِأَنَّ خالَتي طَرَدَتْني ظَهَرَ عَلَيْهِ الْفَرَحُ وَقالَ : « ٱلآنَ يُمْكِنُ أَنْ تُقيمَ مَعَنا وَتَصيرَ ٱبْنًا لي بَدَلًا مِنِ ابْني داڤيد . »

وَهٰكَذا أَقَمْتُ في النُّزُلِ ، وَأَرْسَلَتْ لي خالَتي صُنْدوقَ مَلابِسي .

عِشْتُ مَعَ إِلْزِقير . وَكُنْتُ أَذْهَبُ لِلْمَدْرَسَةِ في الصَّباحِ ، وَأَمْضي بَعْدَ الظُّهْرِ أُعاوِنُهُ في النُّزُلِ أَوْ في صَيْدِ السَّمَكِ .

كَثيرًا ما طَلَبْتُ مِنْ إِلْزِقير أَنْ يَصْحَبَني مَعَهُ في عَمَلِيّاتِ التَّهْريبِ الَّتي يَقومُ بِها ، فَكانَ يَرْفُضُ لِصِغَرِ سِنّي . وَبَعْدَ فَتْرَةٍ بَدَأَ يَصْحَبُني مَعَهُ ، وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ أَمْضَيْتُها في ٱلقارِبِ ، وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى دُخولِ السِّرْدابِ مَرَّةً ثانِيَةً .

لازَمَتْني ٱلعُلْبَةُ الصَّغيرَةُ ـ عُلْبَةُ جون موهون ـ مُعَلَّقَةً حَوْلَ عُنُقي ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ لامِعَةً بَرّاقَةً بَعْدَ أَنْ قُمْتُ بِتَنْظيفِها . وَكَثيرًا ما حاوَلْتُ مَعَ إِلْزِقير أَنْ نَحُلَّ سُطورَها وَلٰكِنْ دونَ جَدْوَى .

اَلفَصْلُ السَّابِعُ

الـدَّبُّوسُ يَسْقُطُ

في أَوائِلِ الرَّبيعِ حَضَرَ رَجُلٌ مِنْ دورْشِسْتَر ، وَعَلَّقَ عَلى بابِ النُّزُلِ بَيانًا جاءَ فيهِ أَنَّ مَنْدوبَ ٱلمَلِكِ سَوْفَ يَحْضُرُ لِزِيارَةِ قَرْيَةِ مونْفِليت خِلالَ أُسْبوعٍ .

وَمَنْـدوبُ ٱلمَلِكِ هٰذا كانَ رَجُلًا ذا مَكانَةٍ يَحْضُرُ مَرَّةً كُلَّ خَمْسَةِ أَعْوامٍ لِيَتَفَقَّدَ أَراضِيَ ٱلمَلِكِ وَمُمْتَلَكاتِهِ . وَلَمْ يَكُنْ بِقَرْيَتِنا شَيْءٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلمُمْتَلَكاتِ سِوَى نُزُلِ « وايْنَط » أَمّا باقي ٱلأَرْضِ فَكانَتْ لِلْموهون .

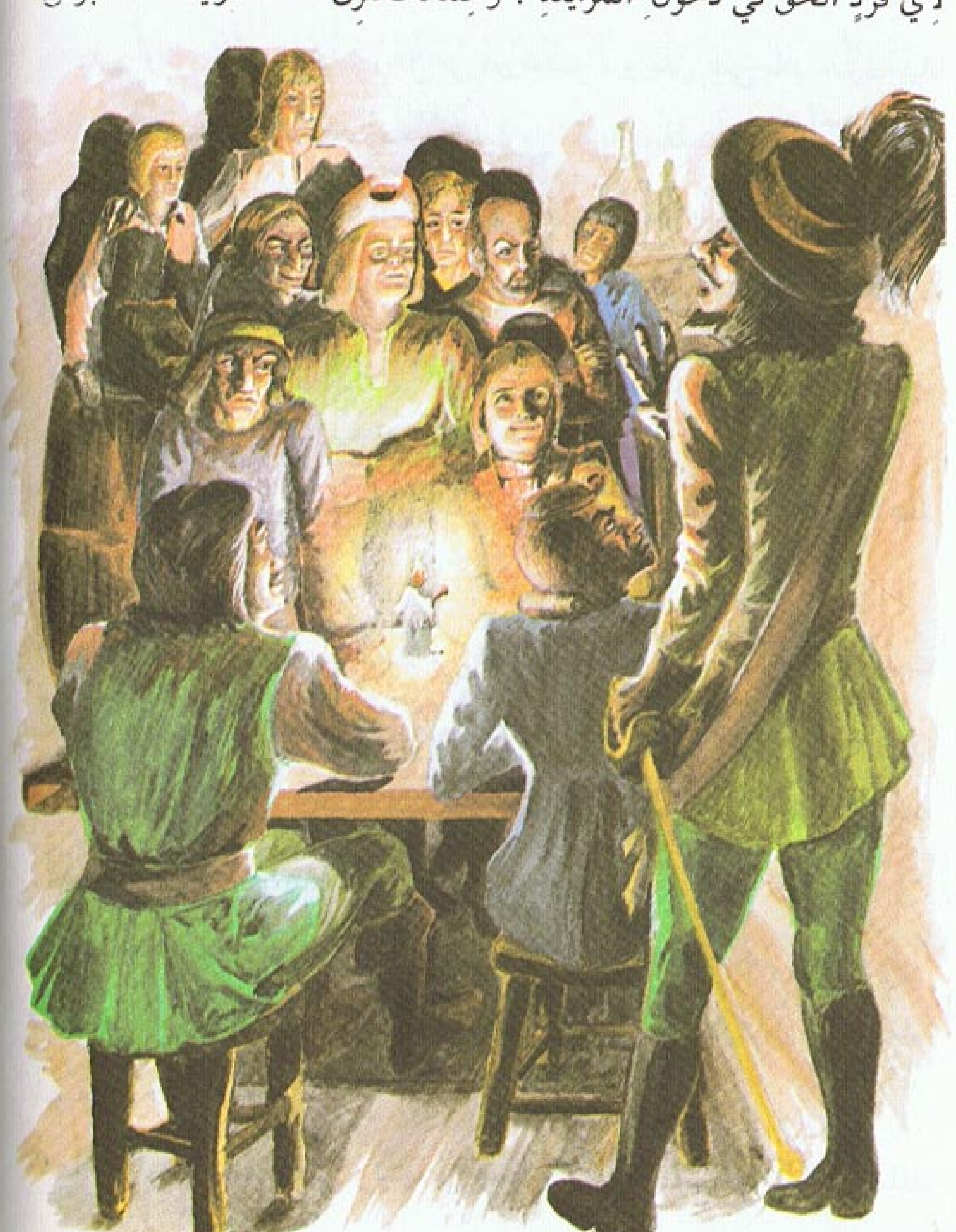
وَكانَ يَحْضُرُ كَذٰلِكَ لِيُجَدِّدَ عَقْدَ إيجارِ النُّزُلِ ، وَيُقَرِّرَ مَنْ لَهُ ٱلحَقُّ في اسْتِغْلالِهِ لِمُدَّةِ السَّنَواتِ ٱلخَمْسِ التّالِيَةِ . وَكانَ إِلْزِقير يَفوزُ دائِمًا بِتَجْديدِ عَقْدِ إيجارِ النُّزُلِ .

وَعِنْدَما رَأَيْتُ ٱلمَنْدوبَ مُقْبِلًا في الطَّريقِ مُمْتَطِيًا جَوادَهُ أَسْرَعْتُ وَأَخْبَرْتُ إِلْزِقير بِوُصـولِـهِ ، فَطَلَبَ مِنّي أَنْ أَذْهَبَ لِمَنْزِلِ خالَتي وَأُحْضِرَ شَمْعَةً مِنْ عِنْدِها . وَلَمْ أَكُنْ قَدْ وَطِئْتُ عَتَبَةَ بابِها مُنْذُ أَنْ طَرَدَتْني ، وَأَعْطَتْني الشَّمْعَةَ وَتَمَنَّتْ أَنْ تُضيءَ الشَّمْعَةُ قَلْبي وَبَصيرَتي .

عِنْـدَمـا عُدْتُ إِلى النُّزُلِ وَجَدْتُ جَوادَ ٱلمَنْدوبِ واقِفًا عَلى بابِهِ وَحَوْلَهُ لَفيفٌ مِنْ أَهْلِ ٱلقَرْيَةِ . وَكانَ ٱلمَنْدوبُ في الدّاخِلِ جالِسًا يَتَناوَلُ وَجْبَةَ طَعامٍ شَهِيَّةً أَعَدَّها لَهُ إِلْزِقير .

أَخَذَ إِلْزِقير الشَّمْعَةَ مِنّي وَثَبَّتَها في وَسَطِ ٱلمِنْضَدَةِ ، ثُمَّ قامَ مَنْدوبُ ٱلمَلِكِ

وَغرزَ بها دبُوسًا على بُعْدِ سَنْتيمتْرَيْن مِنْ أعْلاها . وَكانَ ٱلعُرْفُ يَقْضي بِأَنَّهُ ما بَقيَ الدَّبُوسُ مَغْروسًا في الشَّمْعَةِ ٱلمُضاءةِ يَظَلُّ عَطاءُ ٱلمُزايدةِ مَفْتوحًا وَيكونُ لِأيِّ فَرْدٍ ٱلحَقُّ في دُخولِ ٱلمُزايَدةِ . وَعِنْدَما تَحْترقُ الشَّمْعةُ وَيَسْقُطُ الدَّبُوسُ



يَسْقُطُ ذٰلِكَ ٱلحَقُّ وَيَرْسُو ٱلمَزادُ على آخِرِ شَخْصٍ تَقَدَّمَ بِعَرْضٍ وَيُصْبِحُ النُّزُلُ لَهُ مُدَّةَ السَّنواتِ ٱلخَمْسِ التَّاليةِ .

بَعْدَ أَنْ فَرَغَ ٱلمَنْدوبُ مِنْ تَناوُلِ طَعامِهِ ، أَضاءَ الشَّمْعَةَ ، وَبَدأَتِ ٱلمُساوَمةُ . وَتَقدَّمَ إلْزِقْير بِمَبْلَغِ ٱثْنَي عَشَرَ جُنَيْهًا إيجارًا سَنَويًّا لِلنُّزُلِ كَٱلمُعْتادِ .

وَجلَسَ ٱلجميعُ حوْلَ ٱلمِنْضَدةِ يَتجاذَبونَ أَطْرافَ ٱلحَديثِ وَيَرْقُبونَ لَهَبَ الشَّمْعةِ وَهُوَ يَقْتَرِبُ بِبُطْءٍ مِنْ مَكانِ الدَّبُّوسِ . وَفَجْأَةً دفَعَ ماسْكيو ٱلبابَ وَدَخلَ ، وَتَقَدَّمَ إلى ٱلمِنْضَدةِ ، فَنَهَضَ إلْزِقْير وَقالَ : « يا سَيِّد ماسْكيو ، إنَّكَ لَسْتَ صَديقًا لي ، وَسَيُسْعِدُني أَنْ تَعودَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ . فَأَنا أَمْنَعُكَ مِنَ ٱلجُلوسِ على هٰذِهِ ٱلمِنْضَدةِ بالذَّاتِ . » وَأَدْرَكْتُ مَقْصِدَ إلْزِقْير مِنْ ذٰلِكَ ، فَقَدْ كانَتْ هٰذِهِ ٱلمِنْضَدةُ هِيَ نَفْسَها الَّتي رَأَيْتُ داڤيد مُمَدَّدًا علَيْها .

ٱلْتَفتَ ماسْكيو إلى ٱلمَنْدوبِ وَسَأَلَهُ : « أَخْبِرْني ماذا تَمَّ حَتَّى ٱلآنَ . فَإنَّني أَرَى أَنَّهُ ما زالَ أَمامَنا نَحْوُ دَقيقةٍ . وَأُريدُ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ هٰذِهِ ٱلمُهِمَّةِ لِأُنْجِزَ مَهامَّ أُخْرَى في بِرِدْبُورت . » فَأَخْبَرَهُ ٱلمَنْدوبُ بِٱلعَرْضِ الَّذي قَدَّمَهُ إلْزِقْير ، ثُمَّ أَمَرَ بِإعْدادِ جَوادِهِ عِنْدَ ٱلبابِ . وَجَلَسَ ٱلكُلُّ في صَمْتٍ يَرْقُبونَ ، وَفَجْأَةً شَقَّ الصَّمْتَ صَوْتُ ماسْكيو وَهُوَ يَقولُ : « أَنا أَدْفَعُ ثَلاثَةَ عَشَرَ جُنَيْهًا . »

فَقالَ إلْزِقْير بِصَوْتٍ عالٍ دُونَ أَنْ يَسْتَديرَ أَوْ يَنْظُرَ إلى ماسْكيو : « وَأَنا أَدْفَعُ عِشْرينَ جُنَيْهًا . »

قالَ ماسْكيو : « واحِدًا وَعِشْرينَ . »

وَهٰكذا اسْتَمَرَّتِ ٱلْمُزايَدةُ بَيْنَهُما حَتّى أَوْصَلَها ماسْكيو إلى واحِدٍ وَتِسْعين جُنَيْهًا ، وَالشَّمْعَةُ ما زالَتْ تَحْتَرِقُ وَالدَّبُّوسُ ما زالَ مَغْروزًا بِها .

قالَ ٱلْمَنْـدوبُ : « يا لَلْغَبـاءِ ! ما هٰذا ٱلعِنادُ ؟ يا سَيِّدُ بلوك ، وَفِّرْ على نَفْسِكَ ٱلعَناءَ وَٱلمالَ ، وَدَعِ النُّزُلَ لِهٰذا الرَّجُلِ فَإِنّي أَراهُ مُصَمِّمًا على أَنْ يَفوزَ بِه . وَيُمْكِنُني أَنْ أُعْـطيَكَ نُزُلَ « ٱلفَرَسِ ٱلأَبْيَضِ » في بِرِدْ بُورت ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ هٰذا النُّزُلِ بِكَثيرٍ . »

لَمْ يُعِرْهُ ٱلزِّقْير اهْتِمامًا وَقالَ : « مِئَةَ جُنَيْهٍ . »

قالَ ماسْكيو : « مِئَةٌ وَثَلاثينَ جُنَيْهٍ . » وَاسْتُؤْنِفَ ٱلمَزادُ حَتّى قالَ ٱلزِّقْير : « مِئَةٌ وَتِسْعينَ جُنَيْهًا . »

فَقالَ ماسْكيو : « مِئَتَيْ جُنَيْهٍ . » وَسَقَطَ الدَّبُّوسُ .

ظَنَنْتُ أَنَّ ٱلزِّقْير سَيَنْقَضُّ على ماسْكيو كَوَحْشٍ كاسِرٍ ، إلّا أَنَّهُ نَهَضَ واقِفًا وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمةٍ ، ثُمَّ جَلَسَ ثانيةً في صَمْتٍ تامٍّ .

ٱلْتَفَتَ ٱلمَنْدوبُ إلى ٱلزِّقْير وَسَأَلَهُ : « أَتَرْغَبُ في اسْتِئْجارِ نُزُلِ « ٱلفَرَسِ ٱلأَبْيَضِ » في بِرِد بُورت ، فَبِٱلقُرْبِ مِنْهُ مَدْرَسةٌ صالِحةٌ لِابْنِكَ ؟ » وَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِوَضْعِ يَدِهِ على ذِراعي ظانًّا أَنَّني ٱبْنُ ٱلزِّقْير .

فَرَدَّ ٱلزِّقْير قائِلًا : « شُكْرًا يا سَيِّدي . إِنَّني حينَ أُغادِرُ هٰذا ٱلمَكانَ فَلَنْ أُديرَ أَيَّ نُزُلٍ آخَرَ . »

وَرَحَلَ ٱلمَنْدوبُ وَجَلَسَ ٱلزِّقْير واضِعًا رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ على ٱلمِنْضَدةِ .

اَلفَصْلُ الثّامِنُ

مُتَلَصِّصٌ بِٱلبابِ

قابَلَ أَهْلُ ٱلقَرْيةِ ماسْكيو أَيْنَما حَلَّ بَعْدَ ذٰلِكَ بِنَظَراتِ ٱلبُغْضِ وَٱلكَراهِيَةِ ، فَاعْتَكَفَ في دارِهِ أَيّامًا . وَقالَ ٱلبَعْضُ إِنَّهُمْ رَأَوْهُ يَذْهَبُ إلى وِيماوث لِيُقابِلَ مُحَصِّلي ضَرائِبِ الدَّوْلةِ ، وَإِنَّهُ فَعَلَ ذٰلِكَ كَيْ يَتَّفِقَ مَعَهُمْ على إِرْسالِ رِجالِهِمْ لِضَبْطِ ٱلمُهَرِّبينَ .

وَصَلَتْ هٰذِهِ ٱلأَنْباءُ إلى سَمْعِ ٱلزِّقْير ، فَأَوْقَفَ عَمَلِيّاتِ التَّهْريبِ الَّتي كانَ يَقومُ بِها - بَعْضَ ٱلوَقْتِ - حَتّى كانَ ذاتَ مَساءٍ أَخْبَرَني فيهِ أَنَّ هُناكَ شَحْنَةً مِنَ ٱلبَضائِعِ تَنْتَظِرُ في سانْت مالُو وَلا يُمْكِنُ ٱلاحْتِفاظُ بِها هُناكَ مُدَّةً أَطْوَلَ مِنْ ذٰلِكَ . وَلِأَنَّ عُيونَ ماسْكيو كانَتْ مُنْبَثَّةً في كُلِّ مَكانٍ وَلا تَكُفُّ عَنْ مُراقَبَتِنا ، كانَ مِنْ غَيْرِ ٱلمُمْكِنِ جَلْبُ ٱلبَضائِعِ إلى مونْفليت ؛ لِذا أَمَرَ سَفينةَ ٱلبُوناڤِنْشَر الَّتي تَحْمِلُ تِلْكَ ٱلبَضائِعَ أَنْ تَتَوَجَّهَ شَمالًا إلى مَكانٍ يُدْعى بايْغروف هُول بِٱلقُرْبِ من هُورِهِدْ . وَقَدْ ظَلَّ الرِّجالُ يَسْتَعْمِلونَ ذٰلِكَ ٱلمَكانَ كَمَخْبَإٍ عِدَّةَ سَنَواتٍ قَبْلَ اسْتِعْمالِ مَقْبَرةِ ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ .

قالَ : « يَجِبُ أَنْ نَكـونَ هُناكَ في هُورِهِدْ مُسْتَعِدّينَ بِجِيادِنا في السّاعةِ ٱلخامِسةِ مِنْ صَباحِ ٱلغَدِ ، وَكُنْتُ أَتَمَنّى لَوْ بَكَّرْنا عَنْ ذٰلِكَ لِأَنَّ الشَّمْسَ تُشْرِقُ في ٱلخامِسةِ ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّفينةَ لا يُمْكِنُ أَنْ تَصِلَ قَبْلَ ذٰلِكَ ٱلحينِ . »

وَبَيْنَما كانَ يَتَكَلَّمُ شَعَرْتُ بِهَواءٍ بارِدٍ يَلْفَحُ ظَهْري ، فَتَلَفَّتُّ حَوْلي لِأَرى هَلْ هُناكَ نافِذَةٌ مَفْتوحَةٌ فَلَمْ أَجِدْ . وَلَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ آلبابِ مِنْ مَكاني ، فَنَهَضْتُ وَذَهَبْتُ نَحْوَ آلبابِ فَلَمَحْتُهُ يَتَحَرَّكُ فَأَسْرَعْتُ بِفَتْحِهِ وَخَرَجْتُ إلى الطَّريقِ ، وَلٰكِنَّ الظَّلامَ كانَ دامِسًا ، فَلَمْ أَسْمَعْ سِوى صَوْتِ آلأَمْواجِ مِنْ بُعْدٍ ، لِذٰلِكَ عُدْتُ إلى آلغُرْفَةِ .

سَأَلَني إلْزِقير : « ما آلخَبَرُ ؟ »

أَجَبْتُ : « لَقَدْ تَخَيَّلْتُ شَخْصًا يَسْتَرِقُ السَّمْعَ بِآلبابِ . أَلَمْ تَشْعُرْ بِنَسْمَةِ هَواءٍ بارِدَةٍ كانَتْ تَهُبُّ عَلَيْنا مِنْ ناحِيَةِ آلبابِ ؟ »

قالَ : « لا ، وَلٰكِنَّ آلجَوَّ اللَّيْلَةَ بارِدٌ وَلا شَكَّ . »

قُلْتُ : « ما زِلْتُ غَيْرَ مُقْتَنِعٍ ، قَدْ يَكونُ هُناكَ شَخْصٌ يَتَجَسَّسُ عَلَيْنا . يَحْسُنُ بِنا أَنْ نَأْخُذَ الشَّمْعَةَ وَنُفَتِّشَ آلمَكانَ لِنَتَأَكَّدَ مِنْ خُلُوِّهِ . »

قالَ إلْزِقير : « لا تَقْلَقْ ، فَآلهَواءُ آلبارِدُ هو الَّذي دَفَعَ آلبابَ . وَلٰكِنِ افْعَلْ ما تُريدُ . »

أَخَذْنا الشَّمْعَةَ وَطُفْنا بِآلمَكانِ فَلَمْ نَقِفْ لِأَحَدٍ على أَثَرٍ ، فَضَحِكَ إلْزِقير وَعاوَدْنا حَديثَنا .

قالَ : « لَمْ يَبْقَ لَنا في هٰذا آلمَكانِ سِوى أُسْبوعَيْنِ ، وَكَمْ يُحْزِنُني أَنْ أَرى هٰذِهِ آلأَبْوابَ موصَدَةً في وَجْهي بَعْدَ أَنْ أَمْضَيْتُ وَعائِلَتي في آلمَكانِ ما يَزيدُ

عَنْ مِئَةِ عامٍ . وَلٰكِنْ ما بِآليَدِ حيلَةٌ ، غَدًا إنْ شاءَ اللّٰهُ نَبْحَثُ عَنْ مَنْزِلٍ قُرْبَ آلبَحْرِ بِآلقُرْبِ مِنْ بايْغروف هُول . إنَّ بايْغروف هُول كَهْفٌ كَبيرٌ سَنَجِدُ فيهِ مُتَّسَعًا لِبَضائِعِنا ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ آلمُهَرِّبونَ على مَدى مِئاتِ السِّنينَ . »

كُنْتُ أُفَكِّرُ في أُمورٍ أُخْرى ، وَلَمْ أُجِبْهُ فَقالَ : « أَنْتَ مُتْعَبٌ يا فَتى ! اذْهَبْ إلى فِراشِكَ ، فَغَدًا لَنْ نَنامَ إلَّا قَليلاً . »

كُنْتُ مُتْعَبًا حَقًّا كَما قالَ إلْزِقير ، وَلٰكِنّي لَمْ أَنَمْ . فَقَدْ شَعَرْتُ بِآلحُزْنِ لِمُغادَرَةِ قَرْيَةِ مونْفليت وَتَرْكِ غْريس ماسْكيو . وَمَعَ أَنَّني كُنْتُ صَبِيًّا فَقَدْ كُنْتُ أَزْدادُ تَعَلُّقًا بِها ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَأَهيمُ بِها آلهُيامَ الَّذي يَقْوى عَلَيْهِ فَتًى في مِثْلِ سِنّي . وَكانَتْ عالِمَةً بِكُلِّ أَسْراري ، وَقَدْ أَخْبَرْتُها سِرَّ السِّرْدابِ وَمَخْبَأِ آلمُهَرِّبينَ ، لِأَنّي كُنْتُ واثِقًا أَنَّها لَنْ تَبوحَ بِأَسْراري لِأَحَدٍ قَطُّ ، حَتّى لِأَبيها . وَلَمّا سَمِعَتْ عَنِ آلمُهَرِّبينَ قالَتْ :

« اسْمَعْ يا جُون ، سَأَضَعُ دائِمًا شَمْعَةً مُضاءَةً في نافِذَتي طَوالَ لَيالي الشِّتاءِ فَتَبْدو كَمَنارَةٍ لِلسُّفُنِ الَّتي تَعْبُرُ آلبَحْرَ ، وَتَراها أَنْتَ . »

وَقَدْ وَفَتْ بِوَعْدِها . وَرَأى كَثيرونَ الشَّمْعَةَ آلمُضاءَةَ فَأَطْلَقوا عَلَيْها آسْمَ « مَنارَة ماسْكيو » وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ سَبَبَ إقامَتِها أَحَدٌ سِوايَ .

وَعِنْدَما وَجَدْتُ نَفْسي على أُهْبَةِ الرَّحيلِ ، الَّذي قَدْ يَكونُ لِلأَبَدِ ، قَرَّرْتُ أَنْ أُقابِلَ غْريس لِأُوَدِّعَها وَأُخْبِرَها بِعَزْمي على السَّفَرِ .

اَلفَصْلُ التَّاسِعُ

غْرِيس ماسْكيو

لَنْ أَنْسى اَليَوْمَ التّالِيَ ما حَيِيتُ . فَقَدْ ذَهَبْتُ إلى غابَةِ اَلقَصْرِ بِالقُرْبِ مِنْ مَنْزِلِ غْرِيس ، فَوَجَدْتُ تَجْوِيفًا صَغيرًا عَلى سَفْحِ التَّلِّ اَلمُجاوِرِ لِلْمَنْزِلِ ، يَتَّسِعُ لِغُلامٍ في حَجْمي كَيْ يَرْقُدَ فِيهِ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ مِنَ اَلعُمْقِ بِحَيْثُ يَحُولُ دونَ النَّظَرِ مِنْهُ . فَرَقَدْتُ هُناكَ وَ انْتَظَرْتُ .

كانَ اَليَوْمُ صَحْوًا ، وَأَشِعَّةُ الشَّمْسِ دافِئَةً ، وَ الرِّياحُ ساكِنَةً . وَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى مِنْ مَكاني سُحُبَ اَلغُبارِ اَلمُتَصاعِدَةَ خَلْفَ اَلعَرَباتِ اَلمارَّةِ عَلى الطَّريقِ . وَبَدَتْ فُروعُ اَلأَشْجارِ مُوْرِقَةً ، وَبَراعِمُ اَلأَزْهارِ اَلبَرِّيَّةِ مُتَفَتِّحَةً . فَتَحْتُ اَلعُلْبَةَ اَلمُعَلَّقَةَ في رَقَبَتي ، وَأَخَذْتُ أَقْرَأُ بِإِمْعانٍ اَلمَكْتُوبَ في اَلوَرَقَةِ :

قَدْ يَحيا اَلإِنْسانُ ثَمانينَ عامًا . . .

ضَحِكْتُ مِنْ نَفْسي ، كَمْ كُنْتُ أَبْلَهَ حِينَ تَوَقَّعْتُ أَنْ أَجِدَ اَلأَلْماسَ وَصَناديقَ الذَّهَبِ ! وَمَعَ ذٰلِكَ فَالماسَةُ مَحْفوظَةٌ في مَكانٍ ما ، وَلٰكِنْ أَيْنَ ؟

حَدَّثَتْني غْرِيس عَنِ اعْتِزامِ إِلْزِفير تَرْكَ نُزُلِ « وايْنط » . وَلَمْ تَذْكُرْ أَباها بِسُوءٍ ، وَلٰكِنْ بَدا عَلى وَجْهِها أَنَّها تَتَأَلَّمُ مِنْ تَصَرُّفاتِهِ . كَما أَظْهَرَتْ حُزْنَها لِرَحيلي ، وَقَدْ سَعِدْتُ لِما بَدا عَلَيْها مِنْ حُزْنٍ وَأَسًى لِأَنّي تَأَكَّدْتُ وَقْتَها مِنْ شُعورِها نَحْوي .

قالَتْ غْرِيس : « أَمْسِ في نَحْوِ التّاسِعَةِ (وَكانَ ذٰلِكَ في نَفْسِ اَلوَقْتِ الَّذي كُنْتُ أَتَحَدَّثُ فِيهِ مَعَ إِلْزِفير) هَبَّ والِدي مِنْ مَكانِهِ قائِلًا : « سَأَخْرُجُ إِلى اَلحَديقَةِ أَسْتَنْشِقُ اَلهَواءَ . وَأَثارَ ذٰلِكَ دَهْشَتي لِأَنَّ اللَّيْلَةَ كانَتْ شَديدَةَ اَلبُرودَةِ ، عاصِفَةَ الرِّياحِ . وَعادَ بَعْدَ حَوالَى ساعَةٍ وَأَخْبَرَني أَنَّهُ سَيَرْحَلُ في اَلحالِ إِلى وِيْماوث عَلى أَنْ يَعودَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ . وَأَخَذَ مِعْطَفَهُ وَقُبَّعَتَهُ وَمَضى . »

رَوَتْ غْرِيس هٰذا ، وَهِيَ مُتَعَجِّبَةٌ مِنْ تَصَرُّفاتِ والِدِها . أَمّا أَنا فَقَدْ أَثارَ حَديثُها اَلخَوْفَ في نَفْسي : تُرى ما السَّبَبُ في ذَهابِ ماسْكيو اَلمُفاجِئِ إِلى وِيْماوث ؟

تَرَكَتْني غْرِيس ، وَكانَ اَلوَقْتُ مُتَأَخِّرًا حِينَ عُدْتُ لِلنُّزُلِ ، وَقَدِ امْتَلأَ صَدْري بِالأَسى ، وَأَثْقَلَهُ اَلهَمُّ وَالحُزْنُ ، وَشَعَرْتُ بِأَنّي مُقْبِلٌ عَلى أَيّامٍ حافِلَةٍ بِالمَتاعِبِ وَ اَلعَقَباتِ .

اَلفَصْلُ ٱلعاشِرُ

اَلقَبْضُ عَلى ماسْكيو

تَرَكْتُ النُّزُلَ ، مَعَ إلْزفير ، قَبْلَ ٱلميعادِ ٱلَّذي سَبَقَ اتِّفاقُنا عَلَيْه ، لِأَنَّ أَخْبارًا وَصَلَتْنا مِنْ أَحَدِ بَحّارَةِ السَّفينَةِ تُنْبِئُنا بِأَنَّ ميعادَ وُصولِها قَدْ تَقَدَّمَ ساعَتَيْن .

كانَتِ السَّاعَةُ السَّابِعَةَ عِنْدَما وَصَلْنا إلى قِمَّةِ التَّلِّ ، الَّذي يَبْعُدُ خَمْسَةَ عَشَرَ ميلاً عَنْ هُورْهِدْ . وَ أَدْرَكَنا الظَّلامُ بَعْدَ مَسيرَةِ نِصْفِ ساعَةٍ ، إلَّا أَنَّ اللَّيْلَةَ كانَتْ مُقْمِرَةً نَوْعًا ما أَكْثَرَ مِنْ سابِقَتِها ، وَكانَ النَّسيمُ عَليلاً وَ السَّماءُ صافِيَةً . وَ قَدْ سَلَكْنا الطَّريقَ في صَمْتٍ مُسْتَرْشِدينَ ، بِٱلحِجارَةِ ٱلبَيْضاءِ ٱلَّتي وَضَعَها مُحَصِّلو ضَرائِبِ الدَّوْلَةِ ، كَعَلاماتٍ ، عَلى الطَّريق . وَوَصَلْنا إلى قِمَّةِ هُورْهِدْ وَهِيَ أَعْلى بُقْعَةٍ عَلى الشَّاطِئِ . وَ بَيْنَ ٱلقِمَّةِ وَ ٱلشَّاطِئِ جُرُفٌ صَخْرِيٌّ شَديدُ ٱلانْحِدارِ يَسْتَحيلُ تَسَلُّقُهُ . لٰكِنْ يَخْتَرِقُ ذٰلِكَ ٱلجُرْفَ مَمَرٌّ مُتَعَرِّجٌ يُمْكِنُ سُلوكُهُ بِبُطْءٍ . وَقَدْ سَلَكْنا ذٰلِكَ ٱلمَمَرَّ نازِلَيْن ، فَوَصَلْنا الشَّاطِئَ بَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقَةً .

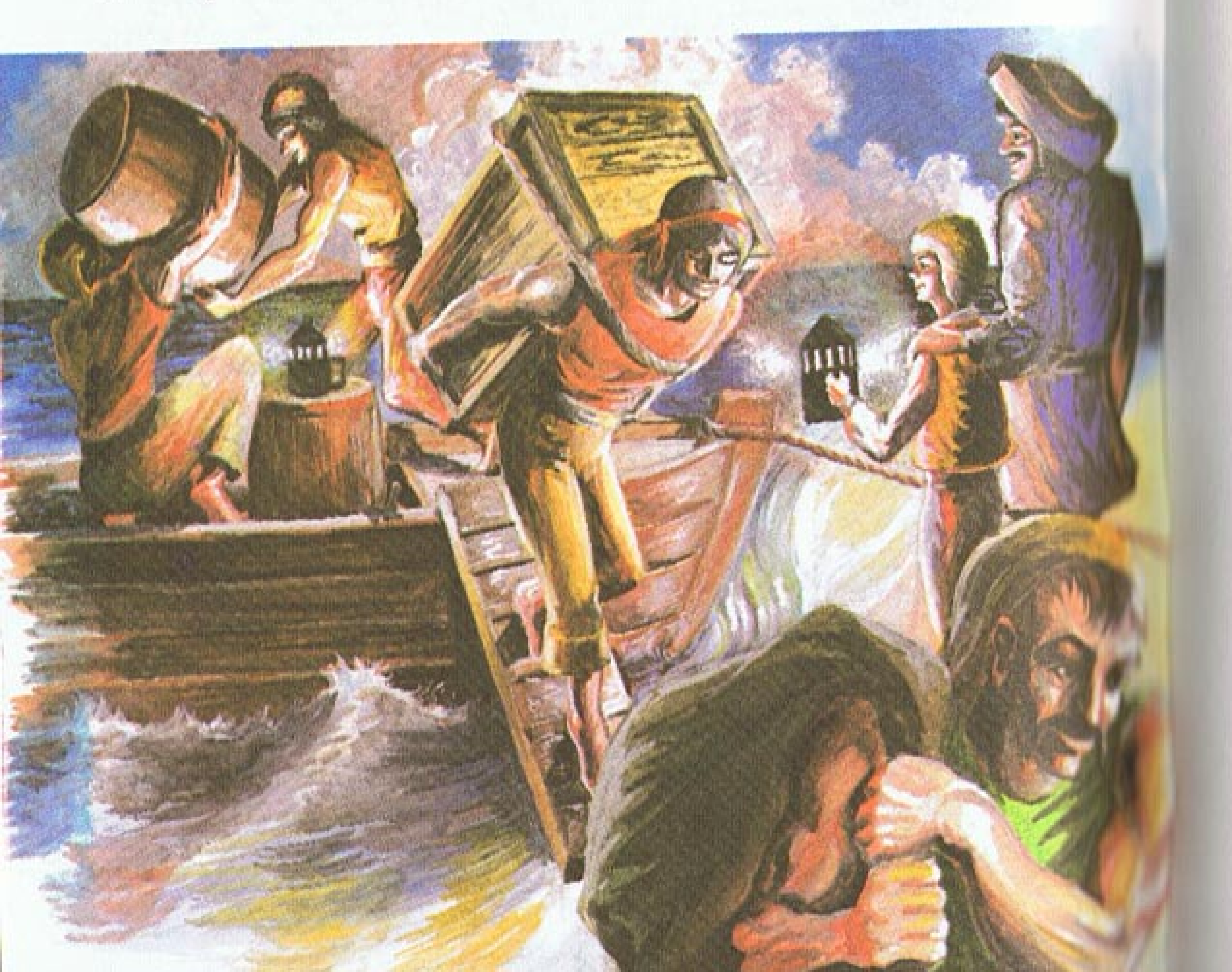
لَمْ نَكُنْ وَحْدَنا ، فَقَدْ رَأَيْتُ هُناكَ حَوالَى عِشْرينَ رَجُلًا ، ٱلبَعْضُ واقِفٌ عَلى الرِّمالِ ، وَ ٱلبَعْضُ عَلى الصُّخورِ ، كَما كانَ بَعْضُهُمْ مُمْسِكًا بِٱلجِيادِ . وَكانوا يَتَحَدَّثونَ بِأَصْواتٍ خافِتَةٍ . وَجَلَسْنا ، وَلَمْ يَطُلِ انْتِظارُنا ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْنا شَخْصٌ ، وَ إذْ بِهِ راتْسي .

قالَ : « كُنْتُ أَحيانًا أُفَكِّرُ أَنْ أَهْجُرَ ٱلقَرْيَةَ يا إلْزفير ، وَلٰكِنْ إذا فَعَلْتُ ، فَمَنْ يُعْنى بِٱلقُبورِ بَعْدي ؟ »

وَ كُنْتُ نِصْفَ نائِمٍ . وقُلْتُ لَهُ : « سَوْفَ يَجِدونَ مَنْ يَحِلُّ مَحَلَّكَ . »

جَلَسَ راتْسي بِجانِبي ، وَ أَخَذَ يَتَحَدَّثُ ، إلَّا أَنّي لَمْ أُعِرْهُ الْتِفاتًا ، إذْ كُنْتُ أَشْعُرُ بِالنُّعاسِ . وَ فَجْأَةً سَمِعْنا صَيْحَةً تُدَوّي في ٱلفَضاءِ فَنَهَضْنا جَميعًا وَاتَّجَهْنا نَحْوَ الشَّاطِئِ صامِتين .

وَجَدْنا أَوَّلَ قارِبٍ قَدْ وَصَلَ إلى الشَّاطِئِ فَبَدَأْنا في تَفْريغِ ما عَلَيْهِ مِنْ بَضائِعَ . وَكانَ مَشْهَدًا عَجيبًا ، فَالرِّجالُ يَتَحَرَّكونَ جَيْئَةً وَذَهابًا ، في الضَّوْءِ



الـذَّهبيِّ لِلْمَصابيحِ الَّتي أَنارَتْ لَهُمُ الطَّريقَ ، وَهُمْ يَحْملونَ آلْبَضائعَ مِنَ آلقَوارِبِ وَيَضَعونَها عَلى ظُهورِ آلجِيادِ آلواقِفَـةِ .

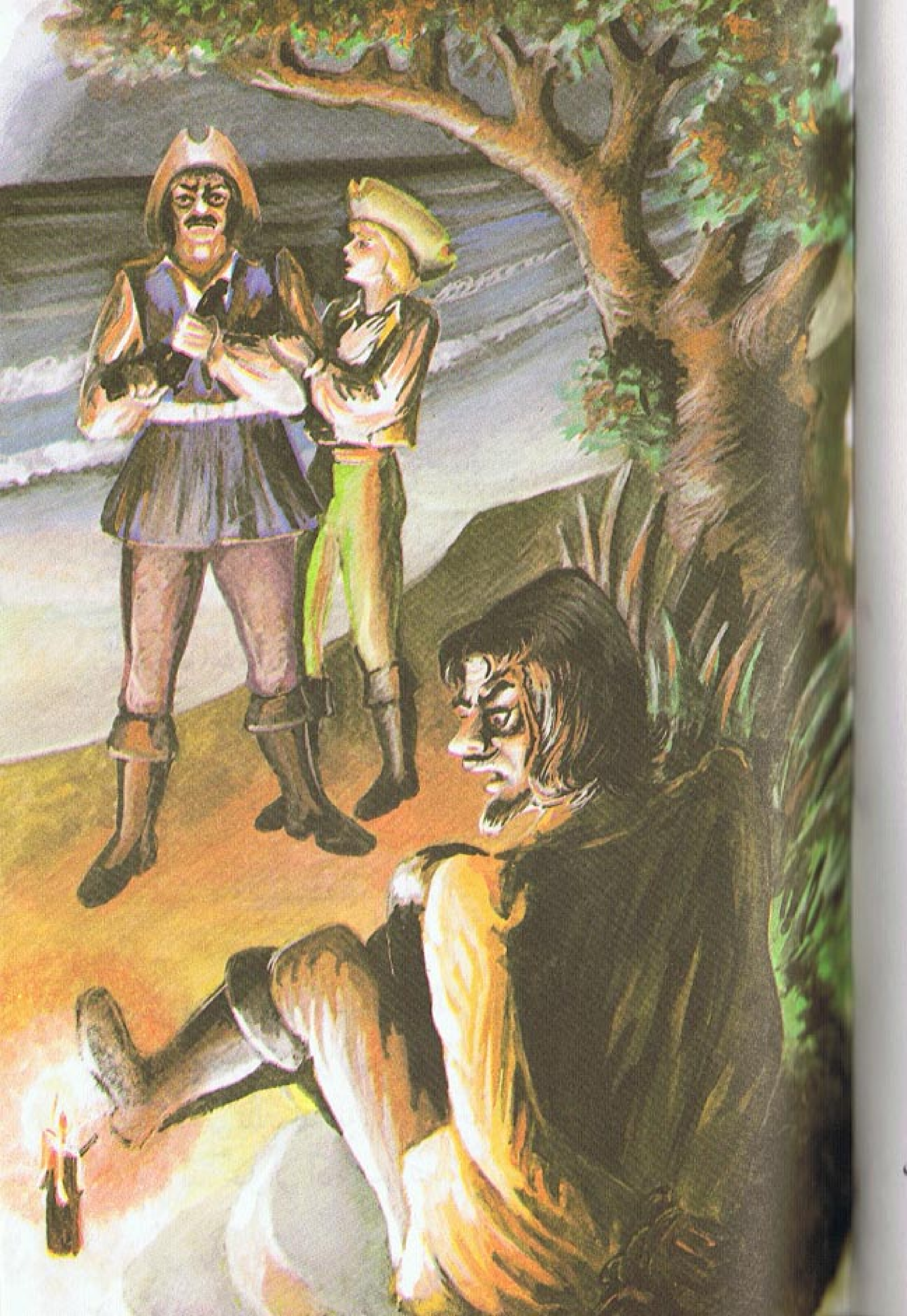
بَعْـدَ مُضيِّ ساعَتَيْنِ ، كانَ الـرِّجالُ قَدِ انْتَهَوْا مِنْ نَقْلِ آلحُمولةِ وَبَدَأَتِ آلجِيادُ تَتَحَرَّكُ ، بَعْضُها مَحَمَّلٌ بالصَّناديقِ وَآلبَعْضُ بِآلبَراميلِ . وَبَدَأْنا في صُعودِ الطَّريقِ إلى آلقِمَّةِ . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى بِدايةِ الطَّريقِ لَمَحْتُ شَيْئًا يَتَحَرَّكُ خَلْفَ شَجَرةٍ ، كَما لَمَحَ ذٰلِكَ غَيْري . وَبَدَأَ الرِّجالُ يَصْرُخونَ ، ثُمَّ رَأَيْتُ شَخْصًا يَعْدو هارِبًا ، وَفي أَثَرِهِ عِدَّةُ رِجالٍ ، كانُوا قَدْ وَضَعوا أَحْمالَهُمْ عَلى آلأَرْضِ وَأَسْرَعوا خَلْفَهُ .

وَكانَ أَقْرَبُ الرِّجالِ إلَيْهِ دامِنْ ، وَجارتْ . وَكُنْتُ أَسْتَطيعُ رُؤْيَةَ الرَّجُلِ الَّذي يَجْري مِنْهُما . وَكانَ يَجْري بِسُرْعةٍ لَمْ أَكُنْ أَتَصَوَّرُ أَنَّها مُمْكِنةٌ .

ثُمَّ أَدْرَكْتُ لِماذا كانَ يَجْري بِهٰذِهِ السُّرْعةِ . إنَّهُ كانَ يَجْري لِلنَّجاةِ بِحَياتِهِ . لَقَـدْ كانَ آلمَـوْتُ نَصيبَـهُ إذا قُبِضَ عَلَيْهِ . وَنَـظَرْتُ إلَيْهِ . . كانَ ما سْكيو . وَآستَمَـرَّ مُنْـطَلِقًا ، وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَمَلٌ في نَجاتِهِ : فَقَدْ كانَ دامِنْ ، وَجارتْ أَسْرَعَ آلعَدَّائينَ في هٰذِهِ آلمِنْطَقةِ مِنْ بِلادِنا .

وَوَقَفْنا جَميعًا حَتّى وَقَعَ الرَّجُلُ في يَدِ مُتَعَقِّبيهِ وَتَطَلَّعْتُ إلى وَجْهِ إلْزِقير . لَقَدْ كانَ يَتَرَقَّبُ ذٰلِكَ ، وَكانَ في آنتِظارِهِ ، وَقَدْ وَقَعَ ما كانَ يَنْتَظِرُهُ . وَكانَ قَدْ قَرَّرَ ما سَيَفْعَلُهُ . لَقَدْ قَرَأْتُ في وَجْهِهِ كَلِمةَ آلمَوْتِ ـ المَوْتِ لِماسْكيو .

سَمِعْتُ صَرْخةً خافِتةً ، ثُمَّ رَأَيْتُ الرَّجُلَيْنِ عائِدَيْنِ وَبَيْنَهُما ماسْكيو يَجُرّانِهِ مِنْ ذِراعَيْهِ . أَصابَني غَثَيانٌ مِنْ ذٰلِكَ آلمَنْظَرِ ، فَقَدْ كانَتْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَرى فيها رَجُلًا يُعامَلُ هٰكَذا . وَقَدْ سَقَطَتْ قُبَّعَتُهُ وَتَدَلّى شَعْرُهُ فَوْقَ وَجْهِهِ الشّاحِبِ ، وَتعـالَتِ آلأَصْواتُ غاضِبةً تُنادي : « أَطْلِقوا عَلَيْهِ النّارَ . » وَيَقولُ آخَرونَ : « اُشْنُقوهُ ، اِقْذِفوا بِهِ مِنْ أَعْلى آلجُرْفِ إلى آلقاعِ . » وَأَبْصَرَ أَحَدُهُمْ مُسَدَّسًا تَحْتَ مِعْطَفِ ماسْكيو ، فَآنتَزَعَهُ وَرَمى بِهِ عِنْدَ قَدَمَي إلْزِقير . حينَئِذٍ عَلا صَوْتُ إلْـزِقير فَوْقَ آلجَميعِ آمِرًا : « لا يَلْمِسْـهُ أَحَدٌ مِنْكُم . أَلا تَعْلَمونَ أَنَّهُ قاتِلُ ابْني ؟ ! أَوْثِقوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَآتْرُكوهُ لي وَحْدي وَآذْهَبوا . » لَمْ يَبْقَ غَيْرُ لَحَظاتٍ قَصيرةٍ عَلى شُروقِ الشَّمْسِ ، وَتَحَـرَّكَ الرِّجالُ جَميعُهُمْ بِجِيادِهِمْ ، وَبَقينا نَحْنُ الثَّلاثَةَ وَحْدَنا : ماسْكيو وَإلْزِقير ، وَأَنا . وَكانَ آلمُسَدَّسُ عَلى آلأَرْضِ عِنْدَ قَدَمَي إلْزِقيـــر .



اَلفصْلُ ٱلحاديَ عَشَر

مَوْتُ ماسْكيو

خَوْفًا مِنَ ٱلبَقاءِ وَرُؤْيَةِ نِهايَةِ ماسْكيو هَمَمْتُ بِأَنْ أَلْحَقَ بِالرِّجالِ ، لٰكِنَّ إِلْزِڤير ناداني قائِلًا : « اِنْتَظِرْ ياجون ، فَقَدْ أَحْتاجُ إِلَيْكَ فيما بَعْدُ . » وَانْتَظَرْتُ دُونَ أَنْ أَدْري كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْتاجَ إِلَيَّ ؟ يَحْتاجُ إِلَيَّ في ماذا ؟

جَلَسَ ماسْكيو مُوثَقًا عَلى ٱلأَرْضِ ، وَظَهْرُهُ إِلى الصَّخْرةِ ، وَكانَ شاحِبَ اللَّوْنِ مُنَكَّسَ الرَّأْسِ ، عَلى حينَ وَقَفَ إِلْزِڤير أَمامَهُ ، مُمْسِكًا بِمِصْباحٍ ، وَمُحَمْلِقًا في وَجْهِهِ .

كُنَّا نَسْمَعُ وَقْعَ حَوافِرِ ٱلخَيْلِ عَلى أَرْضِ ٱلممَرِّ ، تَحْتَ ٱلأَحْمالِ الثَّقيلَةِ . وَ تَلاشَتْ أَصْواتُ وَقْعِ ٱلأَقْدامِ الذَّاهِبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، فَٱزْدادَ السُّكونُ وَعَمَّتِ الرَّهْبَةُ ، وَلَمْ يَكُفَّ إِلْزِڤير عَنِ النَّظَرِ إِلى وَجْهِ ماسْكيو الشَّاحِبِ .

وَ قالَ ماسْكيو لِإِلْزِڤير : « أَنا ضابِطٌ قَضائِيٌّ ، وَحَتْمًا سَيُعْدِمونَكَ إِنْ لَمْ تُطْلِقْ سَراحي وَتَتْرُكْني . »

وَ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ كَلِماتِهِ كانَتْ كَلِماتِ بُطولَةٍ وَ شَجاعَةٍ ، فَقَدْ كانَتْ ــ فيما يَبْدو ــ مُجَرَّدَ تَظاهُرٍ بِالشَّجاعَةِ ؛ فَإِنَّ صَوْتَهُ كانَ يَرْتَجِفُ رُعْبًا .

رَدَّ عَلَيْهِ إِلْزِڤير وَكَأَنَّهُ قاضٍ يُحاكِمُ مُجْرِمًا : « لا تُحَدِّثْني عَنِ ٱلإِعْدامِ ،

فَلَنْ تكونَ سَبَبًا في إعْدامِ أَحَدٍ وَلَنْ ترى أَحَدًا يُعْدَمُ بَعْدَ ٱلآنَ . أَتَذْكُرُ يَوْمَ وَقَفْتَ تُراقِبُ الشَّمْعَةَ تَحْتَرِقُ وَ الدَّبُّوسَ يَسْقُطُ لِتَطْرُدَني مِنْ بَيْتي ؟ ٱليَوْمَ سَتُراقِبُ شَمْعَةً أُخْرى تَحْتَرِقُ وَدَبُّوسًا آخَرَ يَسْقُطُ . وَعِنْدَما يَسْقُطُ سَأُطْلِقُ رَصاصَةً مِنْ مُسَدَّسِكَ على رَأْسِكَ وَأَقْتُلُكَ كَما لَوْ كُنْتَ وَحْشًا كاسِرًا . »

أَخَذَ إِلْزِقير شَمْعَةً وَثَبَّتَ فيها دَبُّوسًا على مَسافَةِ بُوصَةٍ مِنْ أَعْلاها ، وَثَبَّتَ الشَّمْعَةَ فَوْقَ ٱلحَشائِشِ أَمامَ ماسْكيو وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ .

لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ ماسْكيو ، وَلَوْ سُئِلْتُ مُنْذُ ساعَةٍ عَنْ رَأْيي لَقُلْتُ إِنَّهُ يَسْتَحِقُّ ٱلقَتْلَ . وَلٰكِنّي في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، أَخَذْتُ أَبْتَهِلُ إلى اللهِ ، في سَريرَتي ، أَنْ يُتيحَ لَهُ فُرْصَةَ النَّجاةِ وَ ٱلهَرَبِ . وَ شَعَرْتُ بِٱلخَوْفِ مِنَ إِلْزِقير ، وَ بِٱلغَثَيانِ مِنَ التَّفْكيرِ فيما اعْتَزَمَ أَنْ يَفْعَلَهُ .

اخْتَفَتِ النُّجومُ وَ بَدَتْ بَشائِرُ الصَّباحِ تَلوحُ ، وَلَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ بَعْدُ . وَلَبِسَ ٱلكَوْنُ كُلُّهُ حُلَّةً رَمادِيَّةً : السَّماءُ وَ الصُّخورُ وَ ٱلأَشْجارُ . وَكانَ أَكْثَرُ شَيْءٍ عَلاهُ هٰذا اللَّوْنُ الرَّمادِيُّ هو وَجْهَ ماسْكيو ، كَما ظَهَرَتْ خُطوطٌ قاتِمَةٌ تَحْتَ عَيْنَيْهِ ، وَ تَجَمَّدَتْ بَعْضُ قَطَراتِ الدَّمِ على جانِبِ وَجْهِهِ إِثْرَ إِصابَتِهِ بِحَجَرٍ .

أَبْقَى ماسْكيو عَيْنَيْهِ مُثَبَّتَتَيْنِ عَلى ٱلأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَيَّ ، وَلَمْ أَرَ في عَيْنَيْهِ سِوى ٱلعَجْزِ الَّذي يُشاهَدُ في نَظَراتِ حَيَوانٍ ضَعيفٍ يوشِكُ أَنْ يَموتَ . وَحَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ أَكُنْ لاحَظْتُ أَيَّ شَبَهٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنَتِهِ غريس ، أَمّا ٱلآنَ فَقَدْ خُيِّلَ لي أَنَّ غْريس تَتَطَلَّعُ إِلَيَّ مِنْ وَراءِ نَظَراتِهِ ، وَ لَمْ أَقْوَ عَلى

تَحَمُّلِ ٱلمَوْقِفِ وَرُؤْيَتِهِ يُقْتَلُ أَمامَ عَيْنَيَّ .

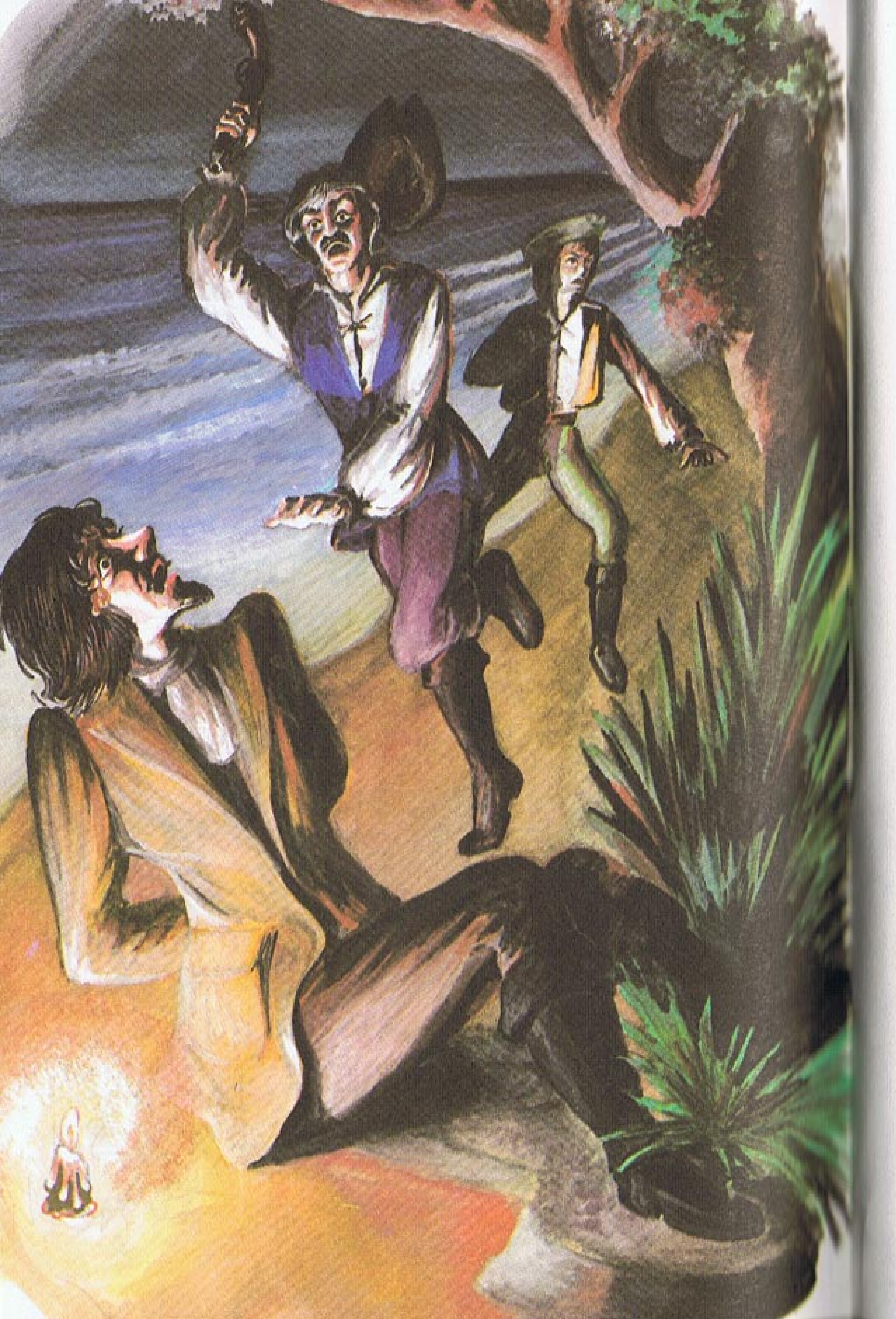
تَطَلَّعَ ماسْكيو إلى الشَّمْعَةِ وَكَأَنَّما يَتَطَلَّعُ إلى دَقائِقِ حَياتِهِ وَهِيَ تَتَساقَطُ قَطْرَةً قَطْرَةً مَعَ قَطَراتِ الشَّمْعَةِ ٱلمُتَساقِطَةِ ؛ وَبَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقَةً سَوْفَ يَسْقُطُ الدَّبُّوسُ .

وَ أَخيرًا قالَ مُسْتَعْطِفًا : « لا تَقْتُلْني ياسَيِّد بلُوك . إِنَّ لي ابْنَةً وَحيدَةً لَيْسَ لَها عائِلٌ سِوايَ ، فَهَلْ تَسْمَحُ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَحْرِمَ فَتاةً صَغيرَةً عائِلَها ٱلوَحيدَ في هٰذا ٱلعالَمِ ؟ وَهَلْ تَرْضَى أَنْ يَحْمِلوا إِلَيْها جُثَّةَ أَبيها مُلَطَّخَةً بِالدِّماءِ وَ الرِّمالِ ، بَعْدَ أَنْ يَجِدوهُ صَريعًا على الشّاطِئِ ؟ »

رَدَّ إِلْزِقير قائِلا : « لَقَدْ كانَ لي ابْنٌ ، ابْنٌ وَحيدٌ ، أَحْضَروهُ لي صَريعًا . أَتَدْري مَنْ صَرَعَهُ ؟ وَأَيُّ مُسَدَّسٍ سَلَبَهُ ٱلحَياةَ ؟ لَقَدْ كانَ هٰذا ٱلمُسَدَّسُ نَفْسُهُ الَّذي سَأَقْتُلُكَ بِهِ . أَسْرِعْ ، وَسَلْ رَبَّكَ الرَّحْمَةَ وَٱلغُفْرانَ ، فَلَيْسَ هُناكَ وَقْتٌ لِصَلاةٍ طَويلَةٍ . » ثُمَّ ٱلْتَقَطَ ٱلمُسَدَّسَ وَ أَدارَ ظَهْرَهُ لِماسْكيو وَأَخَذَ يَمْشي بِبُطْءٍ جَيْئَةً وَذَهابًا .

أَلْهَبَتْ كَلِماتُ ماسْكيو عَنِ ابْنَتِهِ غَضَبَ إِلْزِقير ، وَذَكَّرَتْهُ بِمَصْرَعِ ابْنِهِ داڤيد . وَلٰكِنَّها نَفَذَتْ إلى قَلْبي وَذَكَّرَتْني بِغْريس ، فَرُحْتُ أَتَوَسَّلُ إلى إِلْزِقير أَنْ يَعْدِلَ عَنْ عَزْمِهِ . وَتَرَكَني حَتَّى أَتْمَمْتُ كَلامي ثُمَّ قالَ :

« أَنْتَ غُلامٌ عَطوفٌ ، وَهٰذا ما يَجْعَلُني أُحِبُّكَ . كانَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَقْتُلَهُ وَأَنا في سَوْرَةِ غَضَبي ، أَمّا ٱلآنَ بَعْدَ التَّفْكيرِ ، لا أَقْدِرُ عَلى قَتْلِ رَجُلٍ مُوثَقٍ



آليَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْن ، حتَّى ولَوْ كانَ قتَلَ لي عِشرينَ ابْنًا . ولٰكِنْ لَقدْ تَركَهُ لي رِجالي ، وَ إذا تَركْتُهُ أنا فَسَيَعْمَلُ على إعْدامِهِمْ ، وَلِذا لا بُدَّ لي مِنْ قَتْلِهِ . »

ظَلَلْتُ مُمْسِكًا بِذِراعِ إلْزِفير بِكِلْتا يَدَيَّ أرْجوهُ أنْ يَعْفوَ عَنْ ماسْكيو ، وَلٰكِنَّهُ دَفَعَني عَنْهُ ، وَرَأَيْتُ تَصْميمَهُ على قَتْلِهِ .

عِنْدَما عُدْنا إلى حَيْثُ كانَ ماسْكيو جالِسًا ، رَأَيْتُ أشِعَّةَ الشَّمْسِ تُشْرِقُ مِنْ بَعيدٍ على سَطْحِ آلمِياهِ ، كَما رَأَيْتُ الدَّبُّوسَ يَميلُ بِبُطْءٍ . وَأدْرَكْتُ كَما أدْرَكَ ماسْكيو أنَّ آلوَقْتَ أزِفَ .

عادَ ماسْكيو يَسْتَعْطِفُ إلْزِفير ، وَيَعِدُهُ بِتَقْديمِ مَبْلَغٍ مِنَ آلمالِ أخَذَ يَزيدُهُ مِنْ ألْفِ جُنَيْهٍ إلى خَمْسَةِ آلآفٍ ثُمَّ إلى عَشَرَةِ آلآفِ جُنَيْهٍ مُقابِلَ إخْلاءِ سَبيلِهِ . كَما أقْسَمَ بِأنْ يَهْجُرَ آلقَرْيَةَ بِأكْمَلِها وَيُعيدَ النُّزُلَ إلى إلْزِفير . وَكانَتِ الدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَ إلْزِفير جامِدٌ كَالصَّخْرِ لا يَتَحَرَّكُ . وَأعَدَّ آلمُسَدَّسَ لإطْلاقِ النّـارِ ، وَسَدَدْتُ أُذُنَيَّ بِأصابِعي وَ أغْمَضْتُ عَيْنَيَّ حَتّى لاأَسْمَعَ وَ لاأرى ؛ وَسَقَطَ الدَّبّوسُ !

رَفَعَ إلْزِفير آلمُسَدَّسَ ، فَهَجَمْتُ عَلَيْهِ لأمْنَعَهُ مِنْ إطْلاقِهِ . وَمَضى بَعْضُ آلـوَقْتِ وَنَحْنُ نَتَصـارَعُ ، ثُمَّ انْـطَلَقَتْ رَصاصَةٌ مِنَ آلمُسَدَّسِ . كَيْفَ ؟ لا أدْري ! وَتَرَكْتُ إلْزِفير وَنَظَرْتُ إلى ماسْكيو فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ يَتَهَلَّلُ بِشْرًا ، وَرَأَيْتُهُ يَتَطَلَّعُ إلى أعْلى الطَّريقِ . وَ ظَنَنْتُهُ يَحْمَدُ السَّماءَ على نَجاتِهِ ، وَلٰكِنَّ أحْداثًا جَديدَةً تَوالَتْ : فَقَدْ سَمِعْتُ أصْواتًا آتِيَةً مِنْ بَعيدٍ ، وَتَلَفَّتَ إلْزِفير حَوْلَهُ لِيَرى مِنْ أيْنَ تَأْتي ، أمّا ماسْكيو فَاسْتَمَرَّ ناظِرًا إلى أعْلى الطَّريقِ .

اقْتَرَبَتِ ٱلْأَصْواتُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَفي لَحْظَةٍ كانَ هُناكَ عِشْرونَ رَجُلًا يَقِفونَ عِنْدَ قِمَّةِ الطَّريقِ ، وَقَدْ بَدا لَنا جَلِيًّا في ضَوْءِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ أَنَّهُمْ جُنودٌ . وَأَدْرَكْتُ ــ كَما أَدْرَكَ إِلْزِقير ــ أَنَّ ماسْكيو كانَ قَدِ اسْتَدْعاهُمْ وَأَعَدَّ مِنْهُمْ كَمينًا لِإِمْساكِنا وَنَحْنُ نَرْتَقي الطَّريقَ ، إِلَّا أَنَّ وُصولَ السَّفينَةِ مُبَكِّرًا عَنْ ميعادِهِ كانَ سَبَبًا في تَأَخُّرِهِمْ .

صَرَخَ صَوْتٌ : « باسْمِ ٱلقانونِ قِفْ ! »

صاحَ إِلْزِقير : « رَبّاهُ ! لَقَدْ ضِعْنا ! إِنَّهُمْ جُنودُ ٱلمَلِكِ ، وَ مادُمْنا سَنَموتُ فَلْيَمُتْ هٰذا الرَّجُلُ أَيْضًا . » وَجَرى نَحْوَ ماسْكيو لِيَضْرِبَهُ بِٱلمُسَدَّسِ ، فَصَرَخَ ماسْكيو آمِرًا ٱلجُنودَ : « هَيَّا ! هَيَّا ! أَسْرِعوا وَأَطْلِقوا رَصاصَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُطْلِقَ عَلَيَّ رَصاصَهُ . » هُنا انْطَلَقَتْ رَصاصَةٌ مِنْ أَعْلى وَأَصابَتْ ماسْكيو في جَبْهَتِهِ فَخَرَّ صَريعًا على ٱلحَشائِشِ ، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ إِلْزِقيـر .

قالَ إِلْزِقير : « هَيَّا ، هَيَّا إِلى ٱلجانِبِ الَّـذي عَلى يَسارِنـا ، وَالْتَصِقْ بِالصَّخْرِ فَلَنْ يُصيبوكَ مادُمْتَ تَحْتَمي بِهِ . » وَأَخَذَ يَعْدو . أَمَّا أَنا فَسَقَطْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ وَلَمْ أَقْوَ عَلى التَّحَرُّكِ ، وَشَعَرْتُ بِآلامٍ مُبَرِّحَةٍ في ساقِيَ ٱليُسْرى .

عادَ إِلَيَّ إِلْزِقير قائِلًا : « يا إِلٰهي ! لَقَدْ أَصابوكَ . » ثُمَّ حَمَلَني بَيْنَ ذِراعَيْهِ كَما لَوْ كُنْتُ طِفْلًا ، غَيْرَ مُبالٍ بِالطَّلَقاتِ ٱلمُتَوالِيَةِ الَّتي كانَتْ تَنْهالُ عَلَيْنا ، وَأَسْرَعَ بي إِلى ما وَراءَ الصُّخورِ .

اَلفَصْلُ الثَّاني عَشَر

الصُّعودُ إِلى ٱلقِمَّةِ

نَجَـوْنـا ، وَلٰكِنْ إِلى حينٍ ــ إِلى أَنْ يَصْـدُرَ ٱلأَمْرُ لِلْجُنودِ بِالنُّزولِ إِلَيْنا وَٱلقَبْضِ عَلَيْنا . وَلَمْ يَكُنْ مَعَنا سِوى مُسَدَّسٍ فارِغٍ ، وَعِنْدَ أَقْدامِنا كانَتْ تَرْقُدُ جُثَّةٌ هامِدَةٌ .

بَدَأَ إِلْزِقير ٱلكَلامَ فَسَأَلَني : « أَتَسْتَطيعُ ٱلوُقوفَ ياجون ؟ هَلْ بِساقِكَ كَسْرٌ ؟ »

قُلْتُ : « لا أَدْري ، وَلٰكِنِّي لا أَسْتَطيعُ ٱلوُقوفَ ، وَأَشْعُرُ بِأَلَمٍ شَديدٍ ، وَ أَعْتَقِدُ أَنَّ الدِّماءَ قَدْ مَلَأَتْ حِذائي . »

فَحَصَ إِلْزِقير ساقي ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ لُطْفِهِ في ٱلفَحْصِ ، فَإِنَّني شَعَرْتُ بِآلامٍ مُبَـرِّحَـةٍ . قالَ : « نَعَمْ لَقَدْ كُسِرَتِ ٱلعَظْمَةُ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ لَدَيْنا وَقْتٌ لِعِلاجِها ٱلآنَ ، دَعْني أُضَمِّدُها بِرِباطٍ ، ثُمَّ نُفَكِّرُ فيما نَعْمَلُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ . أَمامَنا ٱلآنَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقَةً قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ ٱلجُنودُ ، وَإِذا بَقينا هُنا فَسَيَأْخُذونَكَ حَيًّا ثُمَّ يَشْنُقونَكَ في دُورْشِسْتَر . وَأَنْتَ لاتَسْتَطيعُ أَنْ تُقاتِلَ وَأَنْتَ مَكْسورُ السَّاقِ . »

اِنْتابَني شُعورٌ بِٱلغَثَيانِ مِنْ شِدَّةِ ٱلأَلَمِ . وَتَمَنَّيْتُ لَوْ أَنَّني ما زِلْتُ في نُزُلِ وايْنِط ، أَوْ في بَيْتِ خالَتي . وَشَجَّعَني إِلْزِقير قائِلًا : « لاتَيْأَسْ يابُنَيَّ ، فَهُناكَ سَبيلٌ لَمْ نَطْرُقْهُ بَعْدُ ، وَلَوْ كُنْتَ سَليمَ السَّاقَيْنِ لَأَسْرَعْنا إِلَيْهِ . وَمَعَ ذٰلِكَ تَجَلَّدْ



وَدَعْنا نُحاوِلُ ٱلآنَ . أَمامَنا دَرْبٌ ضَيِّقٌ لا يَعْرِفُهُ ٱلجُنودُ يُؤَدِّي إلى قِمَّةِ هُورْهِدْ ، وَلَمْ أَسْمَعْ بِأَحَدٍ سَلَكَهُ مِنْ قَبْلُ لِشِدَّةِ ضِيقِهِ وَوُعورَتِهِ . دَعْني أَحْمِلُكَ ، وَفي ٱلأماكِنِ ٱلَّتي لا تَسْمَحُ بِذلِكَ حاوِلْ أَنْ تَزْحَفَ عَلى رُكْبَتَيْكَ وَيَدَيْكَ . »

كانَتْ مُخاطَرةً رَهيبةً ، إلاَّ أَنَّها كانَتِ ٱلفُرْصَةَ ٱلوَحيدةَ ٱلباقيةَ أَمامَنا ، وَكانَ عَلَيْنا أَنْ نَغْتَنِمَها .

قُلْتُ : « أَوَّاهُ ياعَزيزي إلْزِقير ، هَلُمَّ بِنا إلَيْهِ بِسُرْعةٍ ، فَخَيْرٌ لَنا أَنْ نَسْقُطَ عَلى الصَّخْرةِ وَنَموتَ مِنْ أَنْ يَقْبِضَ عَلَيْنا ٱلجُنودُ وَنُعْدَمَ . »

حاوَلْتُ أَنْ أَقِفَ ، فَلَمْ أُفْلِحْ ، وَ سَقَطْتُ عَلى ٱلأَرْضِ صارِخًا مِنْ شِدَّةِ ٱلأَلَمِ ، فَحَمَلَني إلْـزِقير بَيْنَ ذِراعَيْهِ وَرَأْسي فَوْقَ كَتِفِهِ أَتَطَلَّعُ إلى ٱلخَلْفِ ، وَٱتَّجَهَ نَحْوَ الدَّرْبِ الضَّيِّقِ . وَأَلْقَيْتُ نَظْرةً أَخيرةً عَلى ماسْكيو ، وَهُوَ مُلْقًى عَلى ٱلأَرْضِ وَوَجْهُهُ نَحْوَ السَّماءِ .

وَضَعَني إلْـزِقير بُرْهةً عَلى ٱلأَرْضِ لِيَسْتَريحَ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ في الصُّعودِ ، وَنَظَرْتُ إلى الدَّرْبِ فَهالَني ما رَأَيْتُ . رَأَيْتُ دَرْبًا يَتَّسِعُ بَعْضَ ٱلاتِّساعِ في بِدايَتِهِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ في الضِّيقِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى لَيَبْدُو مِثْلَ خَطٍّ مَرْسومٍ عَلى وَجْهِ الصَّخْرِ . وَكانَتْ هُناكَ رائِحةٌ كَريهةٌ تَنْبَعِثُ مِنْ بَقايا جُثَّةِ بَقَرةٍ سَقَطَتْ مِنْ أَعْلاهُ .

أَلْحَحْت عَلى إلْزِقير كَيْ يَتْرُكَني وَيَنْجُوَ بِنَفْسِهِ ، فَقالَ : « هَيَّا ! هَيَّا ! لَمْ يَعُدْ هُناكَ مَجالٌ لِتَغْييرِ خُطَّتِنا ، وَلَمْ يَبْقَ أَمامَنا سِوى خَمْسَ عَشْرةَ دَقيقةً وَيَلْحَقُ

بنـا آلجُنـودُ . وَإذا ارْتَقَيْنـا آلقِمَّـةَ فَسَـوْفَ نُوَفِّرُ ساعةً بِأَكْمَلِها ، لأنَّ آلجُنودَ سَيُضَيِّعونَ بَعْضَ آلوَقْتِ ، بَعْدَ آلعُثورِ على جُثَّةِ ماسْكيو . هَيَّا أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ وَلا تَفْتَحْهُما حَتَّى أُخْبِرَكَ . »

بَعْـدَ لَحْـظةٍ تَرَكْنـا الشَّاطِئَ وَبَدَأَ إلْزِقير يَتَسَلَّقُ الصَّخْرَ ، وكانَ يَتَحَسَّسُ الدَّرْبَ خُطْوةً خُطْوةً بِقَدَمَيْه . وَلَبِثْتُ مَحْمولا مُغْمَضَ آلعَيْنَيْن ، حَتَّى وَصَلْنا إلى ارْتِفاعٍ عالٍ فَشَعَرْتُ بِتَغَيُّرٍ في سُرْعَةِ الرِّيح ، وَأَخَذَتْ خُطواتُ إلْزِقير تَتباطَأُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ . وَأَخيرًا قالَ : « جُون ! سَأَتَوَقَّفُ هُنا قَليلاً ، وَلٰكِنْ لا تَفْتَحْ عَيْنَيْكَ حَتَّى آمُرَكَ بِذٰلِكَ . » وَوَضَعَني عَلى آلأَرْضِ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ حَديثَهُ قائِلاً :
« الدَّرْبُ هُنا ضَيِّقٌ جِدًّا وَلا يَسْمَحُ لي بِحَمْلِكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَزْحَفَ وَحْدَكَ . ثَبِّتْ نَظَرَكَ عَلى الصَّخْرِ وَإيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إلى أَسْفَلَ . »

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ فَوَجَدْتُ دَرْبًا لايَتَجاوَزُ اِتِّساعُهُ قَدَمًا واحِدةً . وَبَدَأْتُ أَزْحَفُ عَلى رُكْبَتَيَّ وَيَدَيَّ ، وَكانَتِ آلآلامُ آلمُبَرِّحةُ في ساقي تَتَضاعَفُ كُلَّما جَرَرْتُها خَلْفي .

صَرَخَ إلْزِقير : « أَسْرِعْ ! أَسْرِعْ ! » وَكانَ إذا سَبَقَني تَوَقَّفَ لأُدْرِكَهُ . وَعِنْدَما اتَّسَعَ الطَّريقُ بَعْضَ الشَّيْءِ انْحَنى وَتَسَلَّقْتُ ظَهْرَهُ ثُمَّ نَهَضَ واقِفًا وَمَضى في سَيْرِه .

نَظَرْتُ إلى أَسْفَـلَ وَرَأَيْتُ آلبَحْـرَ عَلى بُعْدٍ سَحيقٍ . وَكانَتِ الطُّيورُ تَطيرُ تَحْتَنـا ، وَتَذَكَّرْتُ آلبَقَرةَ الَّتي ماتَتْ نَتيجَةَ سُقوطِها فَصَرَخْتُ مِنَ آلخَوْفِ . وَتَوَقَّفَ إلْزِقير وَدَفَعَني لأَسْفَلَ فَانْبَطَحْتُ وَانْبَطَحَ مَعي قائِلاً : « أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ

وَعُدَّ : واحِد ، اِثْنين ، ثَلاثة حَتَّى أَعْرِف . . . »

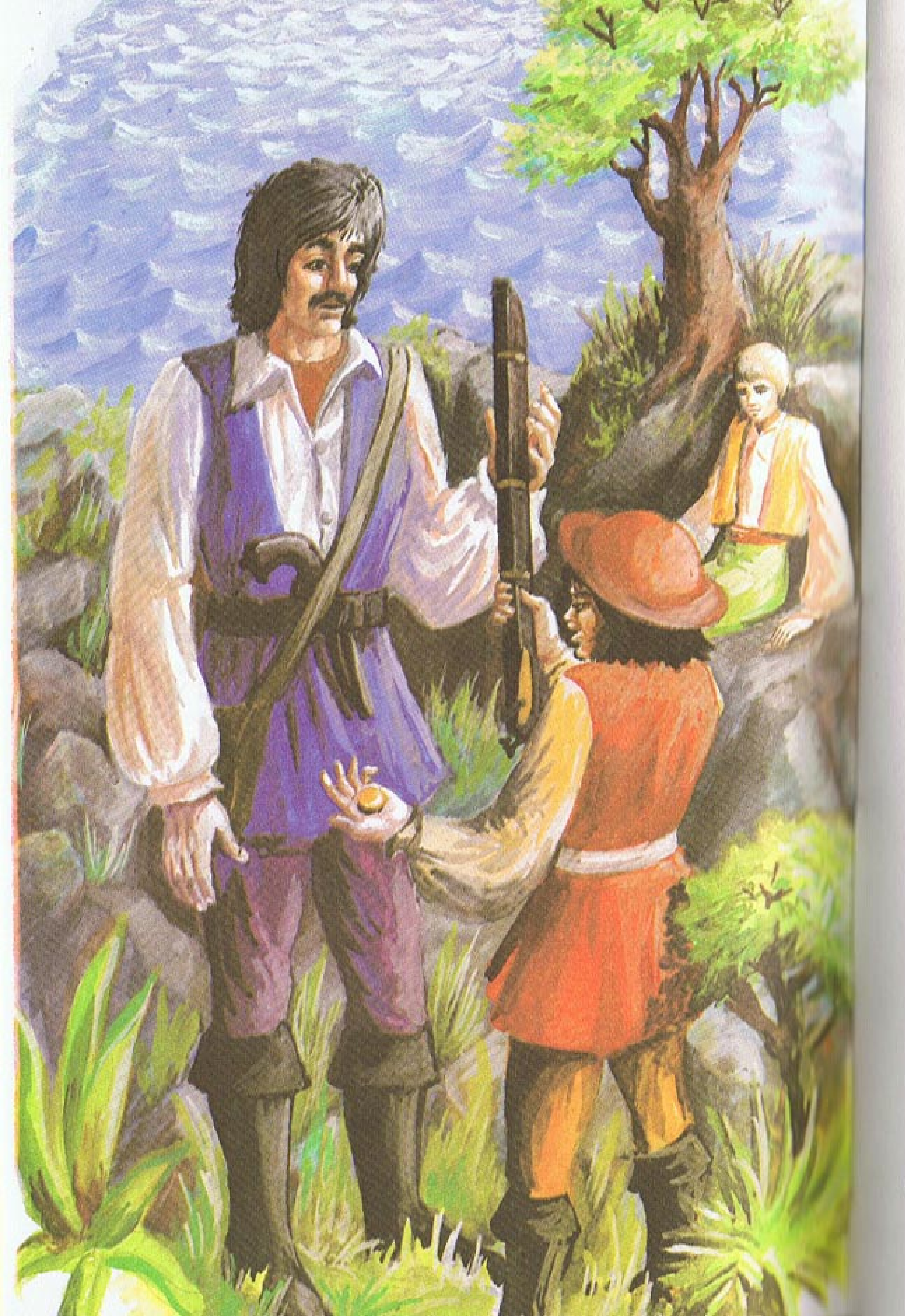
وَبَدا لي صَوْتُهُ بَعيدًا جِدًّا ، ثُمَّ عادَ يَقولُ : « لَقَدِ اسْتَغْرَقْنا عَشْرَ دَقائِقَ كَيْ نَصِلَ إلى هُنا ، وَلايَزالُ أَمامَنا خَمْسُ دَقائِقَ أُخْرى قَبْلَ أَنْ يَصِلَ آلجُنودُ إلى الشَّاطِئِ ، وَلَعَلَّهُمْ تَرَكوا واحِدًا مِنْهُم فَوْقَ آلقِمَّةِ ، وَلٰكِنِّي لا أُرَجِّحُ ذٰلِكَ لأَنَّهُمْ لا يَعْرِفونَ هٰذا الدَّرْبَ . أَمامَنا آلآنَ خَمْسونَ مِتْرًا فَقَطْ . جُون ! لا تَخْذُلْني بِخَوْفِكَ هٰذا . إذا سَقَطْتَ جَذَبْتَني مَعَكَ . ثَبِّتْ نَظَرَكَ عَلى آلأَرْضِ وَهَيَّا بِنا ، وَإلَّا فَسَنَهْلِكُ إذا بَقينا هُنا دَقيقَةً واحِدَةً . »

قُلْتُ : « لا أَقْدِرُ ! لا أَقْدِرُ ! »

قالَ : « لَقَدْ وَصَلوا آلآنَ إلى الشَّاطِئِ وَوَجَدوا جُثَّةَ ماسْكيو ، وَماهِيَ إلَّا دَقيقةٌ أُخْرى حَتَّى يَرَوْنا . »

ما أَغْـرَبَ تَكْـوينَ فِكْـرِ آلإنْسانِ وَشُعورِهِ ؛ فَآلخَوْفُ آلأَكْبَرُ يَطْغَى عَلى آلخَوْفِ آلأَصْغَرِ . فَبَعْدَ سَماعي كَلِماتِهِ زايَلَني آلخَوْفُ مِنَ السُّقوطِ مِنْ عَلُ وَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ وَبَدَأْتُ أَتَقَدَّمُ زاحِفًا عَلى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ . وَشَجَّعَني إلْزِقير قائِلاً : « حَسَنًا ، حَسَنًا . الباقي خَمْسُونَ مِتْرًا أُخْرى ، وَمَتى اجْتَزْتَ تِلْكَ النَّاصِيةَ حَمَلْتُكَ مَرَّةً أُخْرى . وَسَنَنْجَحُ بِإذْنِ اللهِ . »

وَبَعْدَ خَمْسِ دَقائِقَ بَلَغْنا آلقِمَّـةَ .



اَلفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ

اَلكَهْفُ

كانَ آلوَقْتُ مُبَكِّرًا وَقَدْ سَطَعَتِ الشَّمْسُ فَوْقَ سَطْحِ آلبَحْرِ . وَرَقَدْنا عَلى آلحَشائِشِ لِنَلْتَقِطَ أَنْفاسَنا وَنَسْتَريحَ بَعْدَ مُغامَرَتِنا آلمُرْعِبَةِ .

نَهَضَ إلْزِقْير كَمَنْ هَبَّ مِنْ نَوْمٍ ، وَقالَ : « يَجِبُ أَنْ نُواصِلَ السَّيْرَ . لا يَزالُ أَمامَ آلجُنودِ وَقْتٌ قَبْلَ أَنْ يَصِلوا ، لٰكِنْ يَجِبُ أَلَّا يَجِدوا لَنا أَثَرًا هُنا . كَما أَنَّ ساقَكَ في حاجَةٍ إلى عِلاجٍ ، وَأَعْرِفُ كَهْفًا آسْمُهُ كَهْفُ جُوزيف يَصْلُحُ أَنْ يَكونَ مَخْبَأً نُقيمُ فيهِ . هَيَّا بِنا إلَيْهِ ، فَقَدْ يَسْتَغْرِقُ آلوُصولُ إلَيْهِ طَوالَ آليَوْمِ لِأَنَّهُ يَبْعُدُ نَحْوَ أَحَدَ عَشَرَ كيلو مِتْرًا . وَأَنا رَجُلٌ كَبِرَتْ سِنُّهُ ، وَأَنْتَ صَبِيٌّ غَيْرُ خَفيفِ آلوَزْنِ . » وَابْتَسَمَ وَمَدَّ لي يَدَيْهِ ثُمَّ حَمَلَني وَبَدَأَ آلمَسيرَ .

مَضى بَعْضُ آلوَقْتِ ، وَاشْتَدَّتْ حَرارَةُ الشَّمْسِ وَزادَتْ آلامي ، وَتَعِبَ إلْزِقْير وَأَخَذَ يُبْطِئُ في السَّيْرِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى بَلَغْنا جِدارًا قَوِيًّا مُتَهَدِّمًا ، فَوَضَعَني عَلى آلأَرْضِ وَأَلْقى بِنَفْسِهِ جانِبي . وَبَعْدَ دَقائِقَ مَعْدودَةٍ كانَ يَغُطُّ في النَّوْمِ .

جَلَسْتُ مُسْنِدًا ظَهْري إلى آلجِدارِ أَتَأَمَّلُ فيما حَدَثَ . وَبَدَأَ النَّوْمُ يُداعِبُ عَيْنَيَّ أَيْضًا . وَحاوَلْتُ بِكُلِّ جَهْدي أَنْ أَبْقى ساهِرًا لِلْحِراسَةِ كَما كَلَّفَني إلْزِقْير ، وَلٰكِنَّ مُحاوَلاتي باءَتْ بِآلفَشَلِ . وَنِمْتُ لِأَسْتَيْقِظَ عَلى صَوْتِ طَلْقَةٍ نارِيَّةٍ قَريبَةٍ . وَهَمَمْتُ بِإيقاظِ إلْزِقْير ، فَوَجَدْتُهُ يَقِظًا ، وَ أَوْمَأَ إلَيَّ أَنْ أَلْزَمَ

الصَّمْتَ ، وَمَضى يَسْتَطْلِعُ ٱلأَمْرَ . وَعادَ بَعْدَ قَليلٍ لِيَقولَ : « إِنَّهُ غُلامٌ يَصْطادُ الطُّيورَ . وَلَنْ نَبْرَحَ مَكانَنا إِلّا إِذا اتَّجَهَ ناحيتَنا . »

بَعْدَ بُرْهَةٍ قالَ إِلْزِقير : « إِنَّ ٱلغُلامَ مُقْبِلٌ نَحْوَنا . عَلَيْنا أَنْ نُظْهِرَ أَنْفُسَنا . » وَنَهَضَ فَرَآهُ ٱلغُلامُ ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَجْرِيَ هَرَبًا . وَسَأَلَ إِلْزِقير ٱلغُلامَ : « ماذا تَصْنَعُ هُنا ؟ »

أَجابَ ٱلغُلامُ : « أَصْطادُ الطُّيورَ لِلْمَزارِعِ تُوب . »

فَسَأَلَهُ إِلْزِقير : « أَتَسْمَحُ لي بِبَعْضِ البارودِ أَصْطادُ بِهِ أَرْنَبًا لِعَشائِنا ؟ »

قالَ الغُلامُ : « آسِفٌ ياسَيِّدي فَلَيْسَ مَعي إِلّا ٱلقَليلُ ، وَأُريدُ صَيْدَ بَعْضِ الطُّيورِ وَإِلّا نالَني ٱلعِقابُ مِنَ ٱلمُزارِعِ . »

رَدَّ إِلْزِقير : « أَعْطِني بَعْضَ مامَعَكَ وَخُذِ الثَّمَنَ . » وَأَبْرَزَ إِلْزِقير قِطْعَةً كَبيرَةً مِنَ النُّقودِ .

لَمَعَتْ عَيْنا ٱلغُلامِ عِنْدَ رُؤْيَةِ قِطْعَةِ النُّقودِ ، وَقالَ لَهُ إِلْزِقير : « سَأُعْطيكَ قِطْعَتَيْنِ إِذا أَعْطَيْتَني كُلَّ ما مَعَكَ مِنَ البارودِ . »

وَسُرْعانَ ماوافَقَ ٱلغُلامُ وَسَأَلَهُ إِلْزِقير : « هَلْ تَبيعُني ٱلبُنْدُقِيَّةَ أَيْضًا ؟ »

أَجابَ ٱلغُلامُ : « لا ، هٰذا غَيْرُ مُمْكِنٍ . فَهُناكَ شائِعَةٌ بِأَنَّ بَعْضَ ٱلمُهَرِّبينَ يَخْتَبِئونَ في هٰذِهِ الجِهاتِ ، وَأَنَّ ٱلجُنودَ يَجِدّونَ في أَثَرِهِمْ . »

أَجابَهُ إِلْزِقير : « هٰذا ما سَمِعْتُهُ ، وَهٰذا هُوَ سِرُّ رَغْبَتي في شِراءِ ٱلبُنْدُقِيَّةِ ، حِمايَةً لِنَفْسي . أَمّا أَنْتَ ، فَإِنَّكَ غُلامٌ صَغيرٌ لَنْ يُفَكِّرَ ٱلمُهَرِّبونَ في إِيذائِكَ ، وَلَسْتَ في حاجَةٍ لِبُنْدُقِيَّةٍ . »

وَأَخْرَجَ إِلْزِقير قِطْعَةَ نُقودٍ ذَهَبِيَّةٍ ، أَسْرَعَ الصَّبِيُّ يَتَناوَلُها وَيَكِرُّ راجِعًا ، بَعْدَ أَنْ أَعْطى إِلْزِقير ٱلبُنْدُقِيَّةَ .

تَوَجَّسْتُ شَرًّا مِنْ ذٰلِكَ الصَّبِيِّ ، وَتَبِعْتُهُ بِنَظَري حَتّى تَوارى عَنْ عَيْنَيَّ . وَكانَ قَدْ بَدَأَ السَّيْرَ بِخُطًى عادِيَّةٍ ثُمَّ أَخَذَ يَعْدو بِسُرْعَةٍ ، فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ لِيُخْبِرَ الجُنودَ عَنّا .

قالَ إِلْزِقير : « هَيّا ، لَقَدْ زالَتْ شِدَّةُ ٱلحَرِّ وَلَمْ يَبْقَ أَمامَنا سِوى ٱلقَليلِ . »

حَمَلَني وَأَخَذَ يَسيرُ مُسْرِعًا بِمُحاذاةِ ٱلجِدارِ ، وَبَعْدَ أَنْ قَطَعْنا مَسافَةً مِنَ الطَّريقِ بَيْنَ ٱلحُقولِ وَٱلمَزارِعِ وَجَدْنا نَفْسَيْنا فَوْقَ مُروجٍ خَضْراءَ . ثُمَّ وَصَلْنا إِلى تَلٍّ عَلَيْهِ بَعْضُ ٱلبُيوتِ ٱلقَديمَةِ ٱلمَهْجورَةِ ٱلمَبْنِيَّةِ بِالصُّخورِ ، وَقَدْ تَناثَرَتْ صُخورُها وَتَهَدَّمَتْ مُنْذُ سِنينَ عَديدَةٍ . وَرَأَيْنا بِالتَّلِّ فَجْوَةً تَحْتَوي عَلى بَعْضِ الدَّرَجاتِ ٱلهابِطَةِ إِلى أَسْفَلَ .

وَضَعَني إِلْزِقير عَلى ٱلأَرْضِ قائِلاً : « الحَمْدُ لِلّٰهِ ، هٰذا هُوَ مَدْخَلُ كَهْفِ جوزيف . سَنَخْتَبِئُ هُنا حَتّى تَبْرَأَ ساقُكَ ، وَلَنْ يَجِدونا أَبَدًا . إِنَّ هٰذِهِ الدَّرَجاتِ تَقودُ إِلى سِرْدابٍ مَنْحوتٍ في قَلْبِ الصَّخْرِ ، وَفي نِهايَتِهِ كَهْفٌ ذو

فُتحةٍ تُطِلُّ على آلبَحرِ ، وَسَيكونُ ذٰلك آلكَهْفُ مَخْبَأنـا . »

اسْتَرَحْنا قليلاً ثُمَّ حملَني بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، وَأخذَ يهْبطُ الدَّرجَ حتّى وَصَلْنا إلى أسْفَلِهِ ، وكانَ الظَّلامُ يَعُمُّ آلمكانَ . وَاتَّجهَ إلْزِقير إلى آليمين نَحْوَ فُتْحةٍ في الطَّريقِ كَمَنْ يَعْرِفُ السَّبيلَ وَ يأْلَفُهُ ، وكانَ يَتْرُكُني مَرَّةً أوْ مرَّتَيْنِ رَيْثما يَسْتَطْلِعُ الطَّريقَ . وَأخيرًا وَصَلْنا إلى آلكَهْفِ حَيْثُ كانَ هُناكَ ضَوْءٌ خافِتٌ يَنْبَعِثُ مِنْ فُتْحةٍ في نِهايَتِهِ . وَشعَرْتُ بِهَواءٍ باردٍ نَقِيٍّ يُبَشِّرُ بِقُرْبِ آلبَحْرِ .

الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَر

التَّماثُلُ لِلشِّفاءِ

وَضَعَني إلْزِقير فَوْقَ رِمالٍ جافَّةٍ ناعِمةٍ . قالَ : « يَجِبُ أنْ تَرْقُدَ هُنا لِمُدَّةِ شَهْرٍ أوْ شَهْرَيْنِ ، وَ إنْ كُنْتُ أعْلَمُ إنَّهُ لَيْسَ فِراشًا وَثيرًا ، إلَّا أنَّني مُتأكِّدٌ أنَّ هُناكَ ماهُوَ أسْوأُ مِنْ هٰذا بِكَثيرٍ . »

كانَ الصُّـداعُ يَكـادُ يَقْتُلُني ، وَكُنْتُ أشْعُرُ بِظَمأٍ شَديدٍ ، فَأحْضرَ إلْزِقير بَعْضَ آلماءِ في قُبَّعَتِهِ فَشَرِبْتُ ، وَبَعْدَها لَمْ أعِ ماحَدَثَ حَوْلي . فَقَدِ اشْتَدَّتْ بي وَطْأةُ آلمَرَضِ وَكُنْتُ أَهْذي وَأثورُ حَتّى اضْطُرَّ إلْزِقير أنْ يُمْسِكَ بي وَيَمْنَعَني مِنَ النُّهـوضِ . وَقَضَيْتُ عَشَرةَ أيّامٍ كانَ إلْزِقير يَقومُ خِلالَها بِتَمْريضي كَما تَفْعَلُ آلأمُّ آلحَنونُ عِنْدَ مَرَضِ وَلَدِها . وَلَمْ يَتْرُكِ آلكَهْفَ قَطُّ طَوالَ تِلْكَ آلمُدَّةِ إلَّا لِلْبَحْثِ عَنِ الطَّعامِ .

جَعَلَني آلمَرَضُ شَخْصًا هَزيلًا ضَعيفًا ، وَكُنْتُ أُمْضي آلوَقْتَ مُسْتَلْقِيًا على آلأرْضِ ، خالِيَ الذِّهْنِ ، بَعيدًا عَنِ آلهُمومِ ، آكُلُ ما يُقَدَّمُ لي وَلا أُفَكِّرُ في شَيْءٍ .

لَمْ يَعْلَمْ بِمَكـانِنا أحَدٌ سِوى راتْسي ، فَقَدْ كانَ يَأْتينا بِآلأنْباءِ وَالطَّعامِ وَكـانَ آلجُنودُ مُسْتَمِرّينَ في آلبَحْثِ عَنّا في كُلِّ مَكانٍ . وَفي آلبِدايَةِ عِنْدَما وَجَدوا جُثَّةَ ماسْكيو ، ظَنُّوا أنَّنا سَقَطْنا في آلبَحْرِ ، وَلٰكِنْ عِنْدَما رَوى الصَّبيُّ

حكايةَ ٱلرَّجلِ وَالصَّبيِّ اللَّذَيْنِ قابَلَهُما وباعَ أحَدَهُما ٱلبُنْدُقيَّةَ وَٱلبارودَ ، وأنَّ رِجْلَ الصَّبيِّ كانَتْ مَكْسورةً ، أيْقَنُوا أنَّهُ لابُدَّ أنْ نكونَ نَحْنُ الشَّخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ يَبْحَثونَ عَنْهُما . وَأَلْصَقَ ٱلجُنودُ تُهْمَةَ قَتْلِ ماسْكيو بِٱلزِّقير ، وَخُصِّصَتْ مُكافَأَةٌ قَدْرُها خَمْسونَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَجِدُهُ أوْ يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَعِشْرونَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَدُلُّ عَلَيَّ .

تَعاقَبَتِ ٱلأيّامُ ، وَاسْتَرْدَدْتُ عافِيَتي شَيْئًا فَشَيْئًا . وَبَدَأَ ٱلزِّقير يُفَكِّرُ في الرَّحيلِ . وَرَأى أنْ نَذْهَبَ إلى نيوبورت وَمِنْها نُبْحِرُ إلى فَرَنْسا . وَقَرَّرْنا أنْ نَرْكَبَ السَّفينَةَ بوناڤِنْشَر – سَفينَةَ ٱلمُهَرِّبين – وَنَبْقى حَتَّى يَهْدَأَ ٱلحالُ أوْ يَتَوَقَّفَ ٱلبَحْثُ عَنّا .

وفي لَيْلَةِ رَبيعٍ عاصِفَةٍ ذَهَبَ ٱلزِّقير إلى بَلْدَةِ بُول حَيْثُ كانَتْ تَرْسو السَّفينَةُ لِيُقابِلَ ٱلبَحّارَةَ وَيَتَّفِقَ مَعَهُمْ .

وَبَيْنَما كُنْتُ جالِسًا أمامَ ٱلكَهْفِ في ٱنْتِظارِهِ أتَطَلَّعُ إلى ٱلبَحْرِ وَأَرْقُبُ ٱلأمْواجَ وَهيَ تَرْتَطِمُ بِالصَّخْرِ ، انْتابَتْني ٱلهَواجِسُ وَتَخَيَّلْتُ أنّي أرى رَجُلًا يَرْقُدُ عَلى الشّاطِئِ ، وَأنَّ وَجْهَ ذلِكَ الرَّجُلِ هوَ وَجْهُ ماسْكيو يَضْحَكُ ساخِرًا مِنّي . وَأَسْرَعْتُ إلى داخِلِ ٱلكَهْفِ وَأَضَأْتُ الشَّمْعَةَ ثُمَّ أَخْرَجْتُ وَرَقَةَ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ أقْرَأُ فيها بِتَوْقيعِ جون مُوهُون :

قَدْ يَحْيا ٱلإنْسانُ ثَمانينَ عامًا
وَتَقْطَعُ قَدَماهُ دَرْبَ الدُّموعِ

قُمْ وَانْهَلْ مِنْ بِئْرِ ٱلمُتْعَةِ وَٱلهَناءِ
فَٱلمَوْتُ يَأْتي مِنَ **الشَّمال** أو
ٱلجَنوبِ ، في الظَّهيرَةِ أوِ ٱلمَساءِ

سَمِعْتُ صَوْتَ خُطُواتٍ في ٱلمَمَرِّ مُقْبِلَةٍ نَحْوي ، وَلَمْ تَكُنْ خُطُواتِ ٱلزِّقير لِأنَّ وَقْتَ عَوْدَتِهِ مِنْ بُول لَمْ يَكُنْ قَدْ حانَ بَعْدُ ، عِلاوَةً عَلى أنَّنا كُنّا مُتَّفِقَيْنِ عَلى أُنْشودَةٍ يُرَدِّدُها عِنْدَما يَأْتي حَتّى أعْرِفَ أنَّهُ ٱلقادِمُ .

تَرَكْتُ الشَّمْعَةَ وَتَناوَلْتُ ٱلبُنْدُقيَّةَ ، وَكانَتْ بِجانِبي . وَهَدَأَتِ العاصِفَةُ ، وَأَخَذَ صَوْتُ ٱلأقْدامِ يَقْتَرِبُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، ثُمَّ عَثَرَتْ قَدَمُ الرَّجُلِ بِحَجَرٍ فَتَمْتَمَ بِكَلِماتٍ غاضِبَةٍ ، وَصِحْتُ : « مَنِ ٱلقادِمُ ؟ أجِبْ وَإلَّا أطْلَقْتُ عَلَيْكَ النّارَ . »

أجابَ : « أنا راتْسي ياجون ، فَهَلْ تُطْلِقُ النّارَ عَلى أعَزِّ صَديقٍ لَكَ بِالبُنْدُقيَّةِ الَّتي أعْطاكَ إيّاها ؟ »

تَرَكْتُ ٱلبُنْدُقيَّةَ ، وَأَضَأْتُ الشَّمْعَةَ وَتَبَيَّنْتُ راتْسي واقِفًا أمامي وَقَدْ بَلَّلَتْهُ ٱلأمْطارُ . وَفَرِحَ وَتَهَلَّلَ وَجْهُهُ عِنْدَما رآني ، وَأَمْسَكَ يَدي قائِلًا : « جون ! لَقَدْ تَغَيَّرْتَ في شَهْرَيْنِ . كُنْتَ غُلامًا وَأَصْبَحْتَ رَجُلًا . حينَما صَحِبْناكَ مَعَنا مُنْذُ شَهْرَيْنِ إلى هُورْهِدْ كُنْتَ صَبِيًّا وَما كانَ يَنْبَغي أنْ تَكونَ مَعَنا وَقْتَها ، فَلَمْ يَكُنْ ذلِكَ عَمَلًا لائِقًا بِٱلأوْلادِ . »

أَجَبْتُ : « كَلّا ياراتْسي . إنَّ مَكاني دائِمًا بِجانِبِ ٱلزِّقير ، فَحَيْثُما يَذْهَبُ

أَذْهَبْ . » وَجَلَسْتُ لِأَنَّ ساقي آلَمَتْني .

عادَتِ الرِّياحُ إلى ٱلهُبوبِ فانْطَفَأَتِ الشَّمْعَةُ . قالَ راتْسي : « يالَها مِنْ لَيْلَةٍ لَيْلاءَ ! »

قُلْتُ : « نَعَمْ ! لِيَكُنِ اللّهُ في عَوْنِ ٱلْبَحّارةِ ٱلمَساكينِ . »

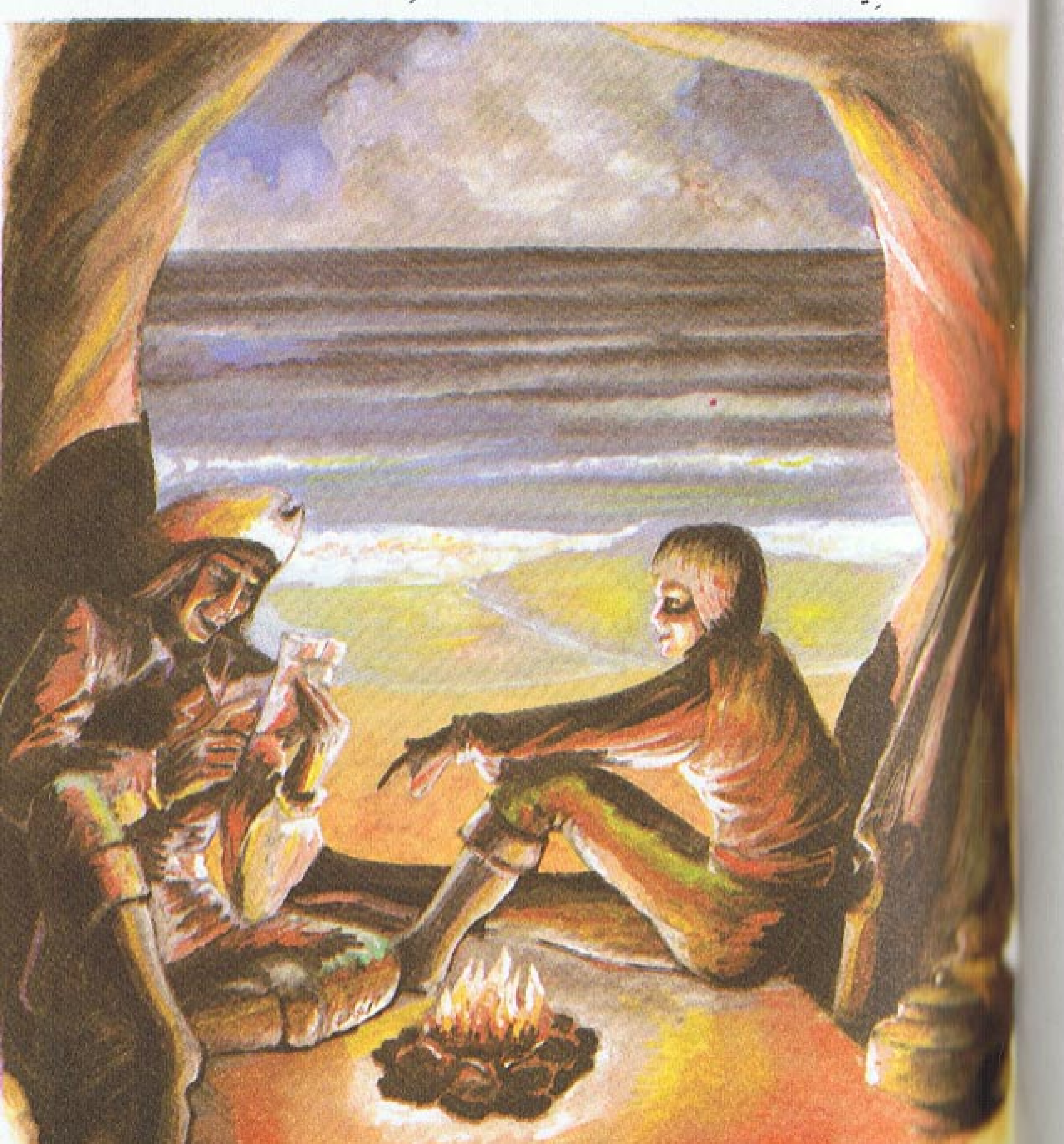
قالَ راتْسي : « غدًا وَلاشَكَّ ، سَتَكونُ هُناكَ بَعْضُ ٱلمَراكِبِ ٱلمُحَطَّمةِ ، مُلْقاةً عَلى الشّاطِئِ في مُونْفِليت . هَيَّا نُشْعِلُ نارًا . » وَجَمَعْنا بَعْضَ ٱلأَخْشابِ وَ أَوْقَدْنا النّارَ .

قالَ راتْسي : « ما أَمْتَعَ الدِّفْءَ ، لَقَدْ كِدْتُ أَموتُ بَرْدًا ، وَلٰكِنِّي حَزينٌ فَهٰذا ٱلمَكانُ يَعودُ بِذاكِرَتي إلى أَرْبَعينَ عامًا مَضَتْ ، عِنْدَما كُنْتُ حَديثَ ٱلعَهْدِ بِالتَّهْريبِ . فَذاتَ صَباحٍ بَيْنَما كُنْتُ أَرْقُدُ عَلى نَفْسِ ٱلبُقْعَةِ الَّتي تَجْلِسُ أَنْتَ عَلَيْها ٱلآنَ ، رَأَيْتُ سَفينَةً فَوْقَ مِياهِ ٱلبَحْرِ تَتَقاذَفُها الرِّياحُ ، وَأَخَذَ مَنْ عَلَيْها مِنْ رِجالٍ وَنِساءٍ يُناضِلونَ ٱلمَوْتَ وَيُصارِعونَ ٱلأَمْواجَ ، وَنَحْنُ لاحَوْلَ لَنا وَلا قُوَّةَ ؛ وَلَمْ نَتَمَكَّنْ مِنْ مَدِّ يَدِ ٱلمُساعَدةِ لَهُمْ . فَقَدْ حَجَبَتِ ٱلأَمْطارُ وَالظَّلامُ عَنّا رُؤْيَتَهُمْ . وَفي الصَّباحِ التّالي عَلِمْنا أَنَّ السَّفينَةَ فْلوريدا قَدْ غَرِقَتْ بِمَنْ عَلَيْها مِنْ رِجالٍ وَنِساءٍ وَأَطْفالٍ . » ثُمَّ ناوَلَني راتْسي وَرَقَةً قائِلاً : « خُذْها وَاقْرَأْ . »

قَرَأْتُ إِعْلانًا عَنْ مُكافَأَتَيْنِ ، إِحْداهُما بِمَبْلَغِ خَمْسينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَجِدُ أَوْ يُرْشِدُ إلى مَكانِ إِلْزِقير ، وَ ٱلأُخْرى بِمَبْلَغِ عِشْرينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَجِدُ أَوْ يُرْشِدُ إلى مَكاني .

قالَ راتْسي : « لا أَحَدَ في مُونْفِليت يَعْرِفُ أَيْنَ أَنْتُما غَيْري ، وَلَوْ عَرَفوا فَلَنْ يُفْشوا السِّرَّ أَبَدًا ، وَٱلجُنودُ يُراقِبونَني أَيْنَما ذَهَبْتُ ، لِذا يَجِبُ أَلَّا أَحْضُرَ هُنا ثانيةً . »

أَخْبَرْتُهُ عَنْ عَزْمِنا بِالرَّحيلِ إلى فَرَنْسا ، فَابْتَهَجَ وَصَمَتَ لَحْظَةً ، ثُمَّ قالَ : « إِنَّ قَلْبي حَزينٌ هٰذا ٱلمَساءِ . حَزينٌ عَلى ٱلأَيّامِ الطَّيِّبَةِ الَّتي وَلَّتْ وَلَنْ تَعودَ ،



وَلَنْ يَعودَ إلْزقير إلى مُونفِليت ؛ وَالنُّزُلُ مُوصَدٌ مُنْذُ مَصْرَعِ ماسْكيو ، وَ غْريس تَبْـدو كَالشَّبَحِ آلهائِمِ ، بَعْدَ ما أَخْبَرَها الرِّجالُ بِأَنَّكَ وَ إلْزقير قَتَلْتُما أَباها ، وَ لٰكِنَّها لَمْ تُصَدِّقْهُمْ وَقالَتْ : « مُسْتَحيلٌ ! إنَّ إلْزقير لايُمْكِنُ أَنْ يَقْتُلَ رَجُلاً أَعْزَلَ مِنَ السِّلاحِ مُوثَقَ آليَدَيْنِ وَآلقَدَمَيْنِ ؛ وَلا يُمْكِنُ أَنْ يَسْمَحَ جُون بِذٰلِكَ . »

كانَ صَوْتُ راتْسى أَحْلَى مِنَ آلمُوسيقى في أُذُني . فَقَدْ أَثْلَجَ صَدْري وَبَعَثَ آلفَرَحَ في نَفْسي ، وَقَـرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ لِغْريس وَأُوَدِّعَها قَبْلَ سَفَري ، وأُخْبِرَها بِكُلِّ شَيْءٍ .

نَظَرَ راتْسى إلَيَّ مَلِيًّا ثُمَّ قالَ : « نَعَمْ ، إنَّها جَميلَةٌ وَإنْ كانَتْ شاحِبَةَ اللَّوْنِ نَحيلَةً ، وَلَـوْ كُنْتُمـا رَجُـلًا وَامْـرَأَةً ، لَكانَتْ لَكَ نِعْمَ الزَّوْجَةُ إذا رَضيتَ بِكَ زَوْجًا . » وَوَضَعَ بَعْضَ آلأَخْشابِ فَوْقَ النّارِ فاشْتَعَلَتْ وَعَلى ضَوْئِها رَأَيْتُ قِطْعَةً مِنَ آلوَرَقِ مُلْقاةً عَلى آلأَرْضِ قَريبًا مِنْ قَدَمِ راتْسي . إنَّها وَرَقَةُ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ الَّتي كُنْتُ أَقْرَؤُها عِنْدَما سَمِعْتُ صَوْتَ أَقْدامٍ في السِّرْدابِ .

آلتَقَطَ راتْسي آلوَرَقَةَ وَقَرَأَها ، ثُمَّ قالَ : « ما أَرْدَأَ هٰذِهِ آلكِتابَةَ ، وَما أَجْهَلَ مَنْ كَتَبَها . لَقَدْ مَيَّزَ أَحْرُفَ بَعْضِ آلكَلِماتِ دُونَ مُبَرِّرٍ . » أَعْطاني آلوَرَقَةَ ، وَنَهَضَ قائِلًا : « لا أَسْتَطيعُ انْتِظارَ إلْزقير حَتَّى يَعودَ . يَجِبُ أَنْ تُخْبِرَهُ بِضَرورَةِ رَحيلِكُما بِسُرْعَةٍ . » وَصافَحَني وَانْصَرَفَ .

أَخَذْتُ آلوَرَقَةَ ، وَعُدْتُ أَتَأَمَّلُها ، وَكَلِماتُهُ تَرِنُّ في أُذُنَيَّ : « لَقَدْ مَيَّزَ أَحْرُفَ بَعْضِ آلكَلِماتِ دُونَ مُبَرِّرٍ :

« ثَمانِينَ   قَدَمًا   مِنْ بِئْرِ   الشَّمالِ »

وَفَجْأَةً وَضَحَ أَمامي اللُّغْزُ ، وَعَجِبْتُ مِنْ نَفْسي كَيْفَ لَمْ أَهْتَدِ لِلْحَلِّ مِنْ قَبْـلُ . إنَّ آلماسَةَ مُخَبَّأَةٌ في بِئْرٍ عَلى عُمْقِ ثَمانينَ قَدَمًا ، أَوْ أَنَّ آلبِئْرَ تَبْعُدُ ثَمـانينَ قَدَمًا إلى الشَّمالِ . وَلٰكِنْ أَيُّ شَمالٍ هٰذا ؟ وَبَيْنَما أَنا أُفَكِّرُ غَلَبَني آلنُّعاسُ فَنِمْتُ .

اسْتَيْقَظْتُ فَوَجَدْتُ النّارَ ما زالَتْ مُشْتَعِلَةً وَ إلْزقير يَجْلِسُ بِجانِبِها مُنْهَمِكًا في طَهْوِ الطَّعامِ . قالَ : « أَنْتَ لاتَصْلُحُ لِلْحِراسَةِ ياجُون . فَهٰذِهِ هِيَ آلمَرَّةُ الثّانِيَةُ الَّتي أَجِدُكَ فيها نائِمًا عِنْدَما يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَبْقى مُسْتَيْقِظًا . »

كانَ فِكْري ما زالَ مَشْغولاً بِآلوَرَقَةِ وَبِما تَوَصَّلْتُ إلَيْهِ مِنْ حَلٍّ ، وَلَمّا حَدَّثْتُهُ عَنْهـا قالَ : « بارَكَ اللّٰهُ فيكَ يابُنَيَّ ! أَظُنُّـكَ حَقًّا قَدِ اهْتَدَيْتَ إلى حَلِّ هٰذا اللُّغْزِ . وَلٰكِنْ أَيْنَ هٰذِهِ آلبِئْرُ ؟ إنَّهُ لَيْسَ في مُونْفِليت بِئْرٌ بِهٰذا آلعُمْقِ ، فَرُبَّما تَكونُ في غَيْرِ مونْفِليت . وَرُبَّما تَكونُ في قَلْعَةِ كاريسْبْروك ، حَيْثُ كانَ آلمَلِكُ سَجينًـا في حِراسَةِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ . وَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ وُجودِ بِئْرٍ هُناكَ ، داخِلَ آلقَلْعَةِ . هَيَّا نَذْهَبُ إلَيْها ، وَلي في آلقَرْيَةِ بَعْضُ آلأَصْدِقاءِ نَسْتَطيعُ أَنْ نَخْتَبِئَ في مَنازِلِهِمْ . كَما أَنَّنا سَنَكونُ في مَأْمَنٍ أَكْثَرَ مِمّا نَحْنُ عَلَيْهِ آلآنَ . »

هٰكَـذا تَقَرَّرَ الرَّحيلُ إلى كاريسْبْروك بَدَلاً مِنْ فَرَنْسا . وَفي آليَوْمِ التّالي أَحْضَـرَ إلْزقير سائِلًا بُنِّيًّا صَبَغَ بِهِ وَجْهي ، ثُمَّ حَلَقَ لِحْيَتَهُ وَارْتَدَيْنا آلمَلابِسَ آلجَـديدَةَ الَّتي أَحْضَرَها ، وَكانَتْ تُناسِبُ مُزارِعًا وَغُلامَهُ . وَنَظَرَ كُلٌّ مِنّا إلى آلآخَرِ ، وَتَأَكَّدْنا مِنْ أَنَّهُ لَنْ يَعْرِفَنا أَحَدٌ ، ثُمَّ رُحْتُ أَمْشي جَيْئَةً وَذَهابًا لِتَقْوِيَـةِ ساقِي .

الفَصْلُ الخامِسَ عَشَرَ

حَتّى عَوْدَتِكَ

لَمْ يَبْقَ سِوى لَيْلَتَيْن قَبْلَ أَنْ نُغادِرَ مَخْبَأَنا . وَكُنْتُ أَشْعُرُ بالأَسى ، وَتَملَّكَتْني رَغْبَةٌ شَديدَةٌ في أَنْ أَرى غْريس قَبْلَ رَحيلي . وَلٰكِنّي خَجِلْتُ مِنْ إبْداءِ تِلْكَ الرَّغْبَةِ أَمامَ إلْزِقير . وَبَيْنَما كُنّا جالِسَيْن عَلى صَخْرَةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ الكَهْفِ نُراقِبُ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ الغارِبَةِ ، رَأَيْتُ الفُرْصَةَ سانِحَةً فَقُلْتُ :
« عَزيزي إلْزِقير . لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَياتي ، وَقُمْتَ بِرِعايَتي طَوالَ هٰذِهِ المُدَّةِ . وَلٰكِنْ مازالَ لي طَلَبٌ واحِدٌ أَرْجُوهُ مِنْكَ . آمُلُ أَنْ تَدَعَني أَخْرُجُ مِنَ الكَهْفِ وَأَسيرُ عَلى الحَشائِشِ . لَقَدْ مَضى عَلَيَّ شَهْرانِ لَمْ أَرَ فيهِما سِوى هٰذِهِ الجُدْرانِ الحَجَرِيَّةِ ، وَقَدْ تاقَتْ نَفْسي لِرُؤْيَةِ العالَمِ الخارِجيِّ . »

قالَ إلْزِقير : « صَهٍ ياوَلَدي ! لاتَقُلْ إنّي أَنْقَذْتُ حَياتَكَ . فَأَنا الَّذي عَرَّضْتُكَ لِلْمَخاطِرِ ، وَلَوْلايَ لَكُنْتَ الآنَ تَرْقُدُ فَوْقَ فِراشِكَ في مُونْفِليت هادِئَ البالِ ، بَدَلًا مِنْ أَنْ تَتَوارى بَيْنَ هٰذِهِ الصُّخورِ . وَسَوْفَ أَذْهَبُ اللَّيْلَةَ إلى أَحَدِ البُيوتِ القَديمَةِ القَريبَةِ مِنْ هُنا ، لِآخُذَ شَيْئًا تَرَكَهُ لي راتْسي هُناكَ . وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَصْحَبَني وَتَسْتَمْتِعَ بِنَسيمِ المَساءِ . »

قُلْتُ : « لا يا إلْزِقير . هٰذا لا يَكْفيني ! دَعْني أَذْهَبُ أَبْعَدَ مِنْ هٰذا . أَنْتَ تَعْلَمُ أَنّي وُلِدْتُ في مُونْفِليت وَعِشْتُ فيها طَوالَ حَياتي ، وَشَبَبْتُ عَلى حُبِّها . فَأَنا أُحِبُّ كُلَّ شَجَرَةٍ فيها ، وَكُلَّ حَصاةٍ عَلى أَرْضِها ، وَكُلَّ قَطْرَةِ ماءٍ في غَديرِها . وَأَوَدُّ أَنْ أُلْقِيَ نَظْرَةَ وَداعٍ أَخيرَةً عَلى كُلِّ هٰذا . دَعْني أَذْهَبُ إلى

مُونْفِليت ، وَكُنْ مُطْمَئِنًّا . فَلَنْ يَعْرِفَني أَحَدٌ في زِيّي هٰذا ، وَسَأَعودُ إلَيْكَ مَساءَ الغَدِ . »

تَأَمَّلَني إلْزِقير لَحْظَةً وَهوَ صامِتٌ ، وَكَأَنَّهُ يَقْرَأُ ما في سَريرَتي ، ثُمَّ قالَ :
« جُون ، لَقَدْ سَمِعْتُ كَثيرًا عَنْ رِجالٍ خاطَروا بِحَياتِهِمْ مِنْ أَجْلِ المالِ أَوْ مِنْ أَجْلِ الحُبِّ أَوِ البُغْضِ ، وَلٰكِنّي لَمْ أَسْمَعْ قَطُّ عَنْ شَخْصٍ أَلْقى بِنَفْسِهِ في المَخاطِرِ لِيَحْظى بِرُؤْيَةِ شَجَرَةٍ أَوْ حَصاةٍ أَوْ غَديرٍ . عِنْدَما يُولَعُ المَرْءُ بِحُبِّ مَكانٍ أَوْ مَدينَةٍ مّا ، فَهوَ بِكُلِّ تَأْكيدٍ يُحِبُّ شَخْصًا في ذٰلِكَ المَكانِ أَوْ في تِلْكَ المَدينَةِ . قُلْ لي ، أَتُريدُ أَنْ تُوَدِّعَ الآنِسَةَ أَرْنُولد خالَتَكَ ؟ »

أَجَبْتُهُ بِالنَّفْيِ ، ثُمَّ أَفْضَيْتُ إلَيْهِ بِكُلِّ سِرّي . قالَ : « يا لَلْحَماقَةِ ! وَلٰكِنْ يَجِبُ أَنْ لا أَنْسى أَنّي كُنْتُ يَوْمًا مّا في مِثْلِ سِنِّكَ ، وَإنّي أَعْرِفُ فَتاتَكَ ، وَكَثيرًا ماتَعَجَّبْتُ كَيْفَ أَنْجَبَ رَجُلٌ مِثْلُ ماسْكيو ، ابْنَةً مِثْلَ غْريس ! وَالآنَ أَحْمَدُ اللّٰهَ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ بِيَدي ! اذْهَبْ إلى أَشْجارِكَ وَحَصاكَ وَغَديرِكَ ، وَسَأَذْهَبُ مَعَكَ بَعْضَ الطَّريقِ ، ثُمَّ أَعودُ وَ أَنْتَظِرُكَ . فَإنْ لَمْ تَعُدْ هُنا عِنْدَ مُنْتَصَفِ لَيْلَةِ الغَدِ ، فَسَأَعْرِفُ أَنَّهُ قُبِضَ عَلَيْكَ ، وَسَأُحاوِلُ مُساعَدَتَكَ . »

صافَحْتُهُ ، وَشَكَرْتُهُ بِحَرارَةٍ .

أَخَذْنا مَعَنا بَعْضَ الخُبْزِ وَ اللَّحْمِ وَبَدَأْنا رِحْلَتَنا . وَكانَ السِّرْدابُ مُظْلِمًا فَقادَني إلْزِقير مِنْ يَدي ، وَبَعْدَ فَتْرَةٍ لاحَتِ السَّماءُ الزَّرْقاءُ فَوْقَ رَأْسي . وَكانَ بِها نَجْمٌ لامِعٌ يُطِلُّ عَلَيْنا . وَشَعَرَ كِلانا بِجَمالِ الطَّبيعَةِ وَرَهْبَةِ اللَّيْلِ ، لِذا مَشَيْنا في صَمْتٍ . ثُمَّ تَوَقَّفْنا في سَيْرِنا عِنْدَ أَحَدِ البُيوتِ القَديمَةِ الَّتي قالَ إلْزِقير إنَّ راتْسي تَرَكَ لَهُ فيهِ شَيْئًا . وَأَنْجَزَ إلْزِقير حاجَتَهُ ، ثُمَّ سِرْنا حَتّى وَصَلْنا

بيربك ، وَهُناكَ أعطاني ٱلمُسَدَّسَ ٱلَّذي كانَ يَمْلِكُهُ ماسْكيو .

قالَ : « إِلَيْكَ هٰذا ياجُون وَلٰكِنْ إِيَّاكَ ، إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَعْمِلَهُ إِلَّا عِنْدَ ٱلضَّرورةِ ٱلقُصْوى ، وإذا ٱسْتَعْمَلْتَهُ فَصَوِّبْهُ إلى نُقْطَةٍ مُنْخَفِضةٍ . »

أَسْرَعْتُ ٱلخُطى وَوَصَلْتُ ٱلمُرْتَفَعَ ٱلَّذي يُطِلُّ عَلى مونفِليت في نَفْسِ ٱللَّحْظَةِ ٱلَّتي بَزَغَتْ فيها ٱلشَّمْسُ ، وَمِنْ هُناكَ رَأَيْتُ ٱلغابةَ وَٱلمنزلَ ٱلعَتيقَ وَٱلقَرْيَةَ بِأَجْمَعِها . وَظَهَرَ ٱلنُّزُلُ وَنَهْرُ فليت وَ ٱلبَحْرُ مِنْ على بُعْدٍ . وَتَمَلَّكَني شُعورٌ غَريبٌ ، هوَ مَزيجٌ مِنَ ٱلفَرَحِ وَٱلأَسى وَٱلحَنين ، عِنْدَما رَأَيْتُ مونفِليت مَرَّةً ثانيةً . وَبَدَأَتْ حَرارةُ ٱلشَّمْسِ في ٱلاِرْتِفاعِ فَٱتَّخَذْتُ طَريقي في ٱلغابةِ ، وَٱخْتَفَيْتُ في مَكانيَ ٱلقَديمِ ٱلمُفَضَّلِ لِأُراقِبَ مَنْزِلَ ماسْكيو .

وَقَفْتُ في حَيْرةٍ ، لا أَجْرُؤُ على طَرْقِ ٱلبابِ فَرُبَّما يَتَعَرَّفُ ٱلخَدَمُ عَلَيَّ . وَبَيْنَما كُنْتُ آكُلُ قِطْعَةَ خُبْزٍ فَكَّرْتُ في كُلِّ شَيْءٍ . وَفي ٱلسَّاعةِ ٱلعاشِرةِ نَهَضْتُ مِنْ مَكاني ، وَسَلَكْتُ ٱلطَّريقَ إلى ٱلمَنْزِلِ . وَ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّني كُنْتُ مُتَأَكِّدًا أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَعْرِفَني في هٰذِهِ ٱلمَلابِسِ فَقَدْ كُنْتُ خائِفًا . وَوَقَفْتُ بِٱلبابِ ، وَقَرَعْتُ ٱلجَرَسَ وَٱنْتَظَرْتُ بُرْهةً . وَلَمَّا هَمَمْتُ أَنْ أَقْرَعَ ٱلبابَ ثانيةً ، سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامٍ مُقْبِلةٍ وَصَوْتًا يَسْأَلُ : « مَنْ بِٱلبابِ ؟ »

أَدْرَكْتُ أَنَّهُ صَوْتُ غْريس ، وَكِدْتُ أُناديها بِاسْمِها ، وَلٰكِنِّي أَحْجَمْتُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكونَ هُناكَ شَخْصٌ آخَرُ مَوْجودًا مَعَها ، فَأَجَبْتُ : « أَنا غُلامٌ مِسْكينٌ ضَلَّ طَريقَهُ . »

فَتَحَتْ غْريس ٱلبابَ وَنَظَرَتْ إِلَيَّ كَمَنْ يَنْظُرُ لِغَريبٍ وَسَأَلَتْني : « إلى أَيْنَ كُنْتَ ذاهِبًا ؟ »

أَجَبْتُ : « أَنا صَبِيٌّ يَعْمَلُ في مَزْرَعةٍ ، وَقَدْ أَتَيْتُ مِنْ بيربك سائِرًا عَلى قَدَمَيَّ أَبْحَثُ عَنْ نُزُلٍ يُدْعى نُزُلُ « واينط » يُديرُهُ شَخْصٌ يُدْعى ٱلزِّقير بْلُوك . فَظَهَرَتْ عَلى وَجْهِها عَلاماتُ ٱلدَّهْشةِ وَنَظَرَتْ إِلَيَّ مُدَقِّقةَ ٱلنَّظَرِ مُسْتَطْلِعةً ، ثُمَّ قالَتْ : « يُمْكِنُكَ أَنْ تَرى ٱلنُّزُلَ مِنْ هُنا إذا صَعِدْتَ هٰذِهِ ٱلدَّرَجاتِ ٱلقَليلةَ . وَلٰكِنَّ ٱلنُّزُلَ أَغْلَقَتْ أَبْوابُهُ مُنْذُ شَهْرَيْنِ ، وَقَدْ رَحَلَ ٱلزِّقير . »

ٱسْتَدارَتْ نَحْوَ ٱلسُّلَّمِ وَتَبِعْتُها . وَحينَ ٱبْتَعَدْنا قَليلاً عَنِ ٱلبابِ قُلْتُ بِصَوْتٍ خافِتٍ : « غْريس ! أَنا جُون تْرِنْشارد ، أَتَيْتُ لِأَراكِ قَبْلَ أَنْ أَرْحَلَ عَنْ مونفِليت . هَلْ مَعَكِ في ٱلبَيْتِ أَحَدٌ ؟ »

لَوْ كانَتْ فَتاةٌ أُخْرى غَيْرَ غْريس ، لَصَرَخَتْ مِنَ ٱلدَّهْشةِ . أَمَّا هِيَ فَقالَتْ بِكُلِّ هُدوءٍ : « لا ياجُون ، أَنا وَحْدي . هَيَّا بِنا لِلْمَنْزِلِ . »

وَصَلْنا إلى ٱلمَنْزِلِ وَ أَوْصَدْنا ٱلبابَ خَلْفَنا ، وَتَماسَكَتْ أَيْدينا ، وَتَشابَكَتْ نَظَراتُنا . وَمَرَّتْ لَحَظاتٌ حُلْوةٌ تَناجَتْ فيها رُوحانا .

قالَتْ : « لَقَدْ غَيَّرَتْكَ ٱلأَيَّامُ ٱلماضيةُ كَثيرًا وَأَصْبَحْتَ رَجُلاً . » وَكانَتْ هِيَ ٱلأُخْرى قَدْ كَبِرَتْ وَصارَتِ ٱمْرَأَةً ناضِجةً ، تُعادِلُني في ٱرْتِفاعِ ٱلقامةِ ؛ بَيْدَ أَنَّ ٱلمَآسِيَ ٱلَّتي عانَتْها كَسَتْ وَجْهَها بِمِسْحةٍ مِنَ ٱلحُزْنِ ، وَسَلَبَتْ جَسَدَها بَعْضَ ٱلوَزْنِ .

نَظَرَتْ إِلَيَّ وَنَظَرْتُ إِلَيْها ، ثُمَّ أَخَذَتْني إلى ٱلحَديقةِ حَيْثُ جَلَسْنا مُتَوارِيَيْنِ مِنْ خَلْفِ شَجَرَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ ، وَأَخْبَرَتْني بِطَريقةِ ٱلهَرَبِ إذا داهَمَنا خَطَـرٌ .

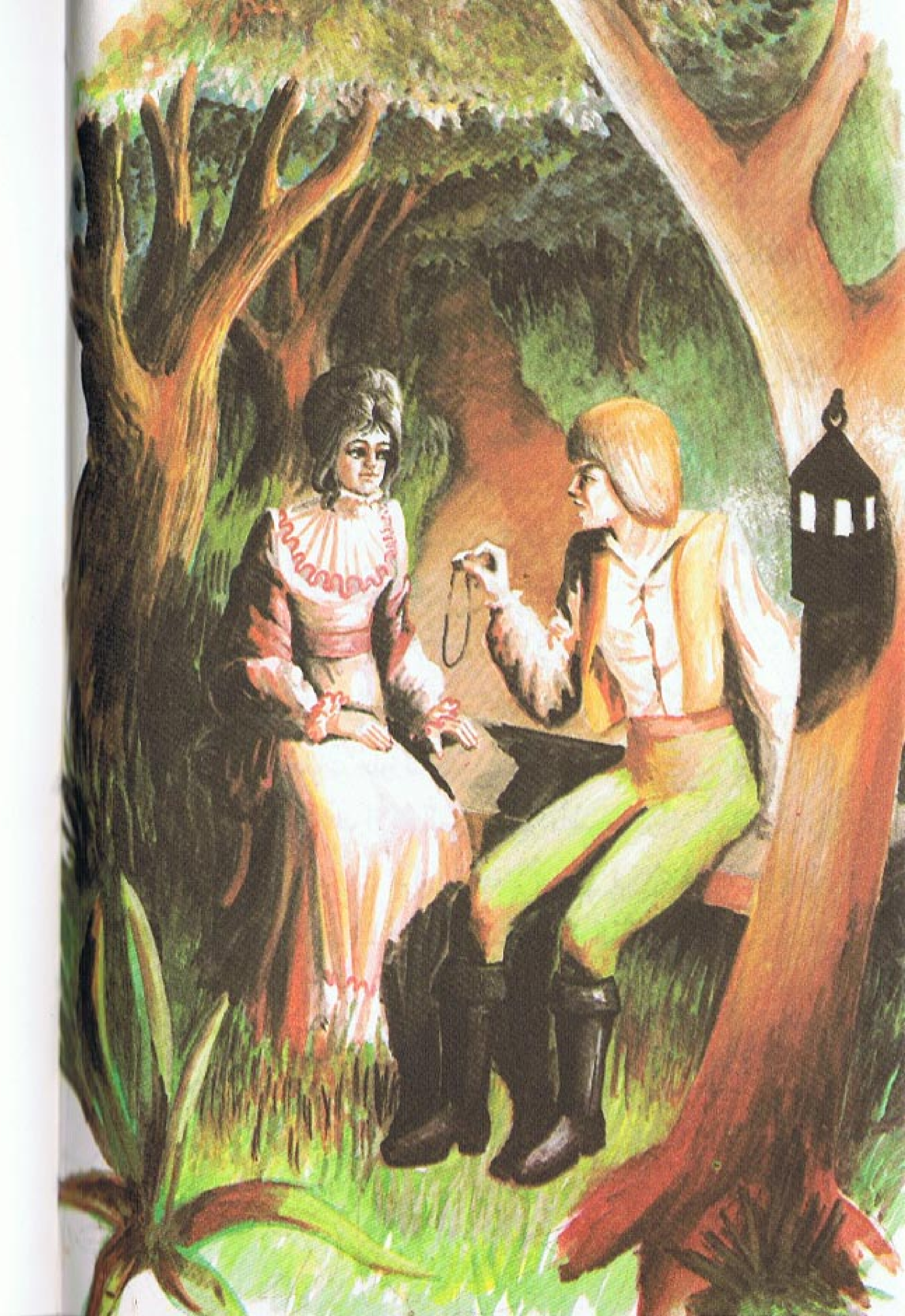
حَدَّثْتُ غريس بكُلِّ ما جَرى ، فَبَكَتْ عِنْدَ ذِكْرِ مَصْرَعِ أَبيها ، ثُمَّ مَسَحَتْ دُموعَها ، وَتَفَحَّصَتْ ساقِيَ وَ اطْمَأَنَّتْ على شِفائي وَحَدَّثْتُها عَنْ عُثوري عَلى ٱلعُلْبَةِ الصَّغيرةِ وَعَنْ وَرَقَةِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ، وَعَنْ قَراري بِٱلبَحْثِ عَنِ ٱلماسةِ حَتَّى أَجِدَها لِأُصْبِحَ مِنْ أَثْرى رِجالِ ٱلعالَمِ كُلِّهِ .

قالَتْ : « أَوَّاه ياجُون ! لا تُفَكِّرْ كَثيرًا في تِلْكَ ٱلماسةِ . لَقَدْ كانَتْ في حَوْزَةِ رَجُلٍ شرِّيرٍ ، وَلَنْ تَكونَ سَبَبًا في إِسْعادِكَ . فَإِذا وَجَدْتَها ، اسْتَخْدِمْها لِمُساعَدَةِ ٱلفُقَراءِ وَٱلمَساكينَ ، وَ إِلاَّ جَرَّتْ عَلَيْكَ ٱلبُؤْسَ أَيْضًا . »

ضَحِكْتُ مِنْ قَوْلِها ، فَهِيَ لا تُدْرِكُ أَنَّ سَعْيي لِامْتِلاكِ ٱلماسةِ كانَ مِنْ أَجْلِ أَنْ أُصْبِحَ ثَرِيًّا لائِقًا بِالزَّواجِ بِها .

جاءَتْني بِبَعْضِ ٱلخُبْزِ وَاللَّحْمِ ، وَبَعْدَ تَناوُلِ الطَّعامِ تَرَكَتْني لِأَسْتَريحَ وَأَنامَ فَقَدْ أَخْبَرْتُها بِأَنِّي قَضَيْتُ اللَّيْلَةَ السَّابِقَةَ ماشِيًا لِلْوُصولِ إِلَيْها . وَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُ غريس جالِسَةً بِجانِبي ، وَكانَ ٱلجَوُّ أَكْثَرَ بُرُودَةً وَالظِّلالُ قَدْ غَطَّتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَزِفَتْ ساعَةُ ٱلفِراقِ .

أَعْطَتْني خُبْزًا وَلَحْمًا وَلَبَنًا وَقالَتْ : « ياجُون ، سَتَجوبُ ٱلبِحارَ وَرُبَّما تَعودُ إِلى مُونْفليت ، وَمَهْما انْقَطَعْتَ عَنْها فَسَأَظَلُّ أَضَعُ شَمْعَتي ٱلمُضاءَةَ في النَّافِذَةِ ، كَما وَعَدْتُكَ مِنْ قَبْلُ . فَإِذا أَتَيْتَ إِلى هٰذِهِ الشَّواطِئِ وَرَأَيْتَها فاعْلَمْ أَنِّي عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ في انْتِظارِكَ ، وَإِنْ لَمْ تَرَها فَاعْلَمْ أَنِّي فارَقْتُ ٱلحَياةَ . سَأَظَلُّ أُفَكِّرُ فيكَ حَتَّى عَوْدَتِكَ . »



اَلفَصْلُ السَّادِسَ عَشَر

في اَلقَلْعَةِ

عُدْتُ إلى اَلكَهْفِ في ساعةٍ مُتَأخِّرةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَكانَتِ اللَّيْلَةُ التَّالِيةُ هِيَ ميعـادَ وُصُولِ السَّفينةِ بُوناڤِنْتُر . وَعِنْدَما وَصَلَتْ ، أَرْسَلَتْ لَنا قارِبًا يَحْمِلُ عَدَدًا مِنَ الرِّجالِ وَكُنْتُ أعرِفُ بَعْضَهُمْ . وَشَعَرْتُ وَقْتَها بِأَلَمِ اَلفِراقِ لِتَرْكِ شَواطِئِ دُورِسِت اَلعَزيزةِ وَاَلكَهْفِ الَّذي آواني شَهْرَيْنِ .

وَصَلْنا في اَليَوْمِ التَّالي إلى كاوز وَمِنْها سِرْنا إلى كاريسْبُروك ، وَنَزَلْنا في نُزُلٍ بَجِلٍ حَيْثُ تَناوَلْنا طَعامَنا ، ثُمَّ نِمْنا . وَكَمْ نَعِمْتُ بِالنَّوْمِ في فِراشٍ مُريحٍ بَعْدَ مُعاناتي مِنَ النَّوْمِ فَوْقَ الرِّمالِ .

كانَ اِلْزِفير يَقْضي مُعْظَمَ اَليَوْمِ في اَلخارِجِ ، أَمَّا أنا فاعْتَكَفْتُ في غُرْفةٍ خَلْفيَّةٍ في اَلفُنْدُقِ أَتَصَفَّحُ ما كانَ بِها مِنْ كُتُبٍ .

ذَهَبَ إِلْزِفير عِدَّةَ مَرَّاتٍ إلى اَلقَلْعةِ ، وَعَرَفَ أنَّها كانَتْ تُسْتَعْمَلُ لِسِجْنِ أَسْرى اَلحَرْبِ اَلفَرَنْسِيِّينَ . وَنَشَأَتْ صَداقةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدِ اَلحُرَّاسِ ، فَدَخَلَ بِمُساعَدَتِهِ اَلقَلْعَةَ وَتَأكَّدَ مِنْ وُجودِ اَلبِئْرِ بِها .

وَذاتَ مَساءٍ كُنْتُ جالِسًا في حَديقةِ النُّزُلِ اَلخَلْفيَّةِ ، وَجاءَ إِلْزِفير وَقالَ : « لَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَجِدَ وَسيلةً نَصِلُ بِها إلى اَلبِئْرِ دُونَ عِلْمِ أَحَدٍ ، فَلَمْ أُوَفَّقْ .

وَهُناكَ حارِسٌ اضْطُرِرْتُ أنْ أُطْلِعَهُ على قَصْدِنا ، رَغْمَ أنِّي لا أَثِقُ بِهِ ، وَوَعَدَ بِأَنْ يَسْمَحَ لَنا بِنُزولِ اَلبِئْرِ ، عَلى أَنْ نُعْطِيَهُ ثُلُثَ مِقْدارِ ما سَوْفَ نَجِدُهُ . وَغَدًا في السَّاعةِ السَّادِسةِ صَباحًا سَيَفْتَحُ لَنا بَوَّابةَ اَلقَلْعةِ ، وَسَنَدْخُلُها مُتَنَكِّرَيْنِ في زِيِّ عامِلَيْنِ حَضَرا لِتَرْميمِ جِدارِ اَلبِئْرِ مِنْ داخِلِها . »

في الصَّبـاحِ التَّالي تَوَجَّهْنا إلى اَلقَلْعةِ وَنَحْنُ نَرْتَدي مَلابِسَ عامِلَيْنِ . وَكانَ اَلمَطَرُ يَهْطِلُ ، فَوَجَدْنا اَلحارِسَ في انْتِظارِنا ، وَفَتَحَ اَلبَوَّابةَ حالَ وُصولِنا قائِلًا : « صَباحَ اَلخَيْرِ . اُدْخُلا لِتَشْرَبا شَيْئًا قَبْلَ اَلبَدْءِ في اَلعَمَلِ . »

شَكَرْناهُ مُعْتَذِرَيْنِ عَنِ الشَّرابِ وَأَبْدَيْنا رَغْبَتَنا في اَلعَمَلِ فَوْرًا .

سارَ الرَّجُلُ وَنَحْنُ نَتْبَعُهُ حَتَّى عَبَرْنا فِناءً فَتَحَ في آخِرِهِ بابًا بِمِفْتاحٍ كانَ يَحْمِلُهُ . وَدَخَلْنا فِناءً أَصْغَرَ أُقيمَ في وَسَطِهِ مَبْنًى خَشَبِيٌّ مُرَبَّعٌ ، ثُمَّ فَتَحَ الرَّجُلُ بابَ هٰذا اَلمَبْنى بِمِفْتاحٍ صَغيرٍ وَبَعْدَ أَنْ دَخَلْناهُ أَغْلَقَ اَلبابَ .

لَمْ تَطْمَئِنَّ نَفْسي إلى ذٰلِكَ الرَّجُلِ . وَقَدْ قيلَ إنَّ اَلجَوْهَرةَ تَجْلِبُ الشَّقاءَ على كُلِّ مَنْ يَمْتَلِكُها ، وَشَعَرْتُ بِأَنَّ هٰذا الرَّجُلَ سَيَجُرُّ عَلَيْنا اَلمَتاعِبَ بَعْدَ أَنْ نَجِدَها .

كانَ في وَسَطِ اَلبِئْرِ دَلْوٌ كَبيرةٌ مُعَلَّقةٌ ، مَدَّ إِلْزِفير يَدَهُ إِلَيْها وَسَحَبَها جانِبًا ، وَقالَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ : « سَأَجْلِسُ في هٰذِهِ الدَّلْوِ وَسَيُنْزِلُني هٰذا الرَّجُلُ الطَّيِّبُ داخِلَ اَلبِئْرِ بِرِفْقٍ . وَسَوْفَ أُمْسِكُ بِهٰذا اَلحَبْلِ وَطولُهُ ثَمانونَ قَدَمًا بِالضَّبْطِ ،

وَعِنْدَما أَصِلُ إلى نِهايَةِ ٱلحَبْلِ في ٱلبِئْرِ ، سَأُنادي عَلَيْكُما كَيْ تَتَوَقَّفا عَنِ الاِسْتِمْرارِ في إِنْزالي . »

لَمْ تُعْجِبْني تِلْكَ ٱلخُطَّةُ ، وَشَعَرْتُ بِعَدَمِ ٱلاِرْتِياحِ لِوُجودي وَحْدي مَعَ ذٰلِكَ الرَّجُلِ فَقُلْتُ : « لا ، لا . دَعْني أَنا أَهْبِطُ بِالدَّلْوِ فَأَنا أَصْغَرُ مِنْكَ حَجْمًا وَأَخَفُّ وَزْنًا ، وَتَبْقَى أَنْتَ هُنا مَعَ هٰذا السَّيِّدِ وَتُعاوِنُهُ . »

وافَقَ إلْزِقير ، وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ قالَ بِحِدَّةٍ وَغَضَبٍ : « الخُطَّةُ ٱلأولى أَنْسَبُ بِكَثيرٍ . »

نَظَرْتُ إلى إلْزِقير مُحاوِلاً أَنْ أَنْقُلَ إِلَيْهِ بِنَظَراتي ما كانَ يَدورُ بِخاطِري ، فَفَهِمَ إلْزِقير قَصْدي وَوافَقَ عَلى خُطَّتي وَلَمْ يَأْبَهْ بِرَأْيِ الرَّجُلِ .

سَأَلْتُ إلْزِقير : « هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّ ٱلهَواءَ في ٱلبِئْرِ غَيْرُ فاسِدٍ ؟ »

أَجابَ : « نَعَمْ . فَقَدْ أَنْزَلْتُ شَمْعَةً مُشْتَعِلَةً في ٱلبِئْرِ أَمْسِ ، فَظَلَّتْ تَحْتَرِقُ بِلَهَبٍ وَضّاءٍ حَتَّى وَصَلَتْ إلى ٱلقاعِ ، وَما دامَتِ الشَّمْعَةُ تَحْتَرِقُ فَلابُدَّ أَنْ يَكونَ ٱلهَواءُ صالِحًا . إِلَيْنا بِشَمْعَةٍ أَيُّها السَّيِّدُ . »

أَحْضَرَ الرَّجُلُ شَمْعَةً وَثَبَّتَها عَلى قِطْعَةِ خَشَبٍ وَأَنْزَلَها في ٱلبِئْرِ بَعْدَ أَنْ أَضاءَها ، فَظَلَّ نورُها يَصْغُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى أَصْبَحَ قَبَسًا ضَعيفًا يَنْبَعِثُ مِنْ نُقْطَةٍ . وَأَخيرًا رَأَيْتُ الضَّوْءَ يَنْعَكِسُ عَلى ٱلأَمْواجِ الصَّغيرَةِ الَّتي تَعْلو سَطْحَ ٱلماءِ . عِنْدَما وَصَلَتِ الشَّمْعَةُ إلى ٱلقاعِ ، سَحَبَ الرَّجُلُ الشَّمْعَةَ ثُمَّ قَذَفَ

حَجَرًا في ٱلبِئْرِ . وَفي مُنْتَصَفِ ٱلمَسافَةِ اصْطَدَمَ ٱلحَجَرُ بِجِدارِ ٱلبِئْرِ وَأَخَذَ يَتَأَرْجَحُ مِنْ جانِبٍ إِلى جانِبٍ مُحْدِثًا صَوْتًا عَميقًا كَصَوْتِ أَمْواجِ ٱلبَحْرِ ٱلمُتَكَسِّرَةِ عَلى الشّاطِئِ .

صَوَّبَ إِلَيَّ الرَّجُلُ نَظْرَةً وَكَأَنَّهُ يَقولُ : « هٰكَذا سَيَكونُ صَوْتُ سُقوطِكَ . »

وَسَأَلَني إلْزِقير : « أَواثِقٌ أَنْتَ بِأَنَّكَ قادِرٌ عَلى أَنْ تَقومَ بِهٰذِهِ ٱلمُهِمَّةِ ؟ إِنِّي أُفَضِّلُ أَنْ تَضيعَ جَواهِرُ العالَمِ بِأَسْرِهِ ، عَلى أَنْ تَضيعَ أَنْتَ ! »

قُلْتُ : « لا تَخَفْ . »

اَلفَصْلُ السَّابِعَ عَشَرَ

في آلبِئْرِ

كانَتِ الدَّلْوُ كَبيرةً ، وَكانَ نُزولي بِها بِبُطْءٍ مُريحًا وَرُحْتُ أَتَفَحَّصُ جُدْرانَ آلبِئْرِ أَثْناءَ نُزولي مِنْ غَيْرِ أَنْ أَتْرُكَ آلحَبْلَ . وَبَدَأَ الضَّوْءُ يَقِلُّ تَدْريجيًّا حَتّى أَصْبَحَتْ فُوَّهَةُ آلبِئْرِ فَوْقي تَبْدو بَيْضاءَ مُسْتَديرةً كَآلقَمَرِ . وَعِنْدَ نِهايَةِ آلحَبْلِ - وَكُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إِلى عُمْقِ ثَمانينَ قَدَمًا - نادَيْتُ عَلَيْهِما كَيْ يَتَوَقَّفا . وَتَطَلَّعْتُ حَوْلي ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا ، فَقَدْ بُنِيَتْ جُدْرانُ آلبِئْرِ بِمُكَعَّباتٍ صَغيرةٍ مِنَ آلحَجَرِ ، وَبَدَتْ كُلُّها مُتَشابِهةً .

نَفِدَ صَبْرُ الرَّجُلِ وَصَرَخَ فِيَّ : « ماذا تَفْعَلُ ؟ هَلْ وَجَدْتَ شَيْئًا ؟ هَلْ وَجَدْتَ آلمَكانَ ؟ »

قُلْتُ : « لا ، لا أَرى شَيْئًا هُنا . » وَسَأَلْتُ آلزِّقيرِ : « هَلْ أَنْتَ وَاثِقٌ أَنَّ طُولَ آلحَبْلِ يَبْلُغُ ثَمانينَ قَدَمًا ؟ »

وَسَمِعْتُهُما يَتَجادَلانِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَتَبَيَّنْ حَديثَهُما . ثُمَّ قالَ آلزِّقيرِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ : « يَقولونَ إِنَّهُمْ قاموا بِتَعْلِيَةِ آلأَرْضِ هُنا ، فَاهْبِطْ وَابْحَثْ عِنْدَ مُسْتَوًى أَعْمَقَ . »

وَبَدَأَتِ الدَّلْوُ تَهْبِطُ بي ثانِيةً ، وَسَمِعْتُ أَصْواتًا تَنْبَعِثُ مِنْ قاعِ آلبِئْرِ ، كَما

لَوْ كانَ آلمَوْتى يَقومونَ بِحِراسةِ آلجَوْهَرةِ وَقَدْ أَقْلَقَهُمْ وُجودي .

وَبَيْنَما كانَتِ الدَّلْوُ تَهْبِطُ بي لَمَحْتُ حَجَرًا نُقِشَتْ عَلَيْهِ عَلامةُ (٧) ، فَأَيْقَنْتُ أَنّي قَدْ وَصَلْتُ إِلى غايَتي .

وَمَدَدْتُ يَدي ، وَلٰكِنّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَلْمِسَ آلحَجَرَ لِبُعْدي عَنْهُ ، فَطَلَبْتُ سَحْبَ الدَّلْوِ إِلى آلجِهةِ آلمُقابِلةِ ، وَبَدَأْتُ في إِزالةِ آلحَجَرِ . وَكانَ الرَّجُلُ يَصْرُخُ مِنْ أَعْلى قائِلًا : « ماذا تَفْعَلُ ؟ هَلْ وَجَدْتَ شَيْئًا ؟ » وَأَثارَ إِلْحاحُهُ في السُّؤالِ غَضَبي ، وَتَعَجَّبْتُ لِسُكوتِ آلزِّقيرِ . ثُمَّ أَزَلْتُ آلحَجَرَ وَوَضَعْتُ يَدي في الثُّقْبِ الَّذي تَرَكَهُ آلحَجَرُ ، فَعَثَرْتُ عَلى كيسٍ صَغيرٍ تَحَسَّسْتُهُ فَشَعَرْتُ بِشَيْءٍ مُسْتَديرٍ صُلْبٍ بِداخِلِهِ . وَعِنْدَما فَتَحْتُهُ وَجَدْتُ في يَدي آلماسةَ آلمَنْشودةَ .

لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ في حَياتي مِنْ قَبْلُ ماسةً كَبيرةً أَوْ صَغيرةً . وَلٰكِنّي كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ ما بِيَدي لابُدَّ أَنْ يَكونَ أَثْمَنَ ماساتِ آلعالَمِ كُلِّهِ وَأَجْمَلَها .

وَعِنْدَما كانَ نُورُ الشَّمْعةِ يَنْعَكِسُ عَلى سَطْحِ آلماسةِ كانَتْ تَسْطَعُ مِنْها أَشِعَّةٌ مُلَوَّنةٌ مُتَأَلِّقةٌ تَبْهَرُ النَّظَرَ ، فَوَقَفْتُ أَتَأَمَّلُها وَقَدْ مَرَّتِ آلأَحْلامُ بِخاطِري : هَلْ سَأُصْبِحُ رَجُلًا ثَرِيًّا وَأَعودُ إِلى مونفِليت لِأَحْظى بِغْريس زَوْجةً لي ؟ وَأَفَقْتُ مِنْ أَحْلامي عَلى صَوْتِ الرَّجُلِ يَقولُ : « أَلَمْ تَجِدْ شَيْئًا بَعْدُ ؟ »

فَصَرَخْتُ فَرِحًا : « بَلى ! بَلى ! لَقَدْ وَجَدْتُها . »

صَعِدَتْ بي الدَّلْوُ أَسْرَعَ مِمَّا كانَتْ تَهْبِطُ . وَتَخَيَّلْتُ أَنّي أَسْمَعُ غْرِيس تَقولُ : « لَقَدْ كانَتِ ٱلماسَةُ في حَوْزَةِ رَجُلٍ شِرِّير ، وَلَنْ تَجْلِبَ لَكَ سِوى الشَّقاءِ . » ثُمَّ تَوَقَّفَتِ الدَّلْوُ بي قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إلى حافَةِ ٱلبِئْرِ ، وَسَأَلَ الرَّجُلُ بِلَهْفَةٍ : « أَيْنَ ٱلماسَةُ ؟ أَيْنَ ٱلماسَةُ ؟ أَعْطِني إيَّاها . »

وَرَأَيْتُ وَجْهَ إِلْزِقير يُطِلُّ مِنْ أَعْلَى ، فَأَمْسَكْتُ بِٱلماسَةِ بَيْنَ أَصابِعي لِأُرِيَها لَهُ . وَكِدْتُ أَنْ أُناوِلَها لِلْحارِسِ ، وَلٰكِنَّ شَيْئًا مّا في نَظْرَتِهِ أَوْقَفَني وَتَذَكَّرْتُ عَلاءَ الدِّينِ الَّذي رَفَضَ تَسْليمَ ٱلمِصْباحِ حَتَّى يَأْمَنَ وُصولَهُ على سَطْحِ ٱلأَرْضِ .

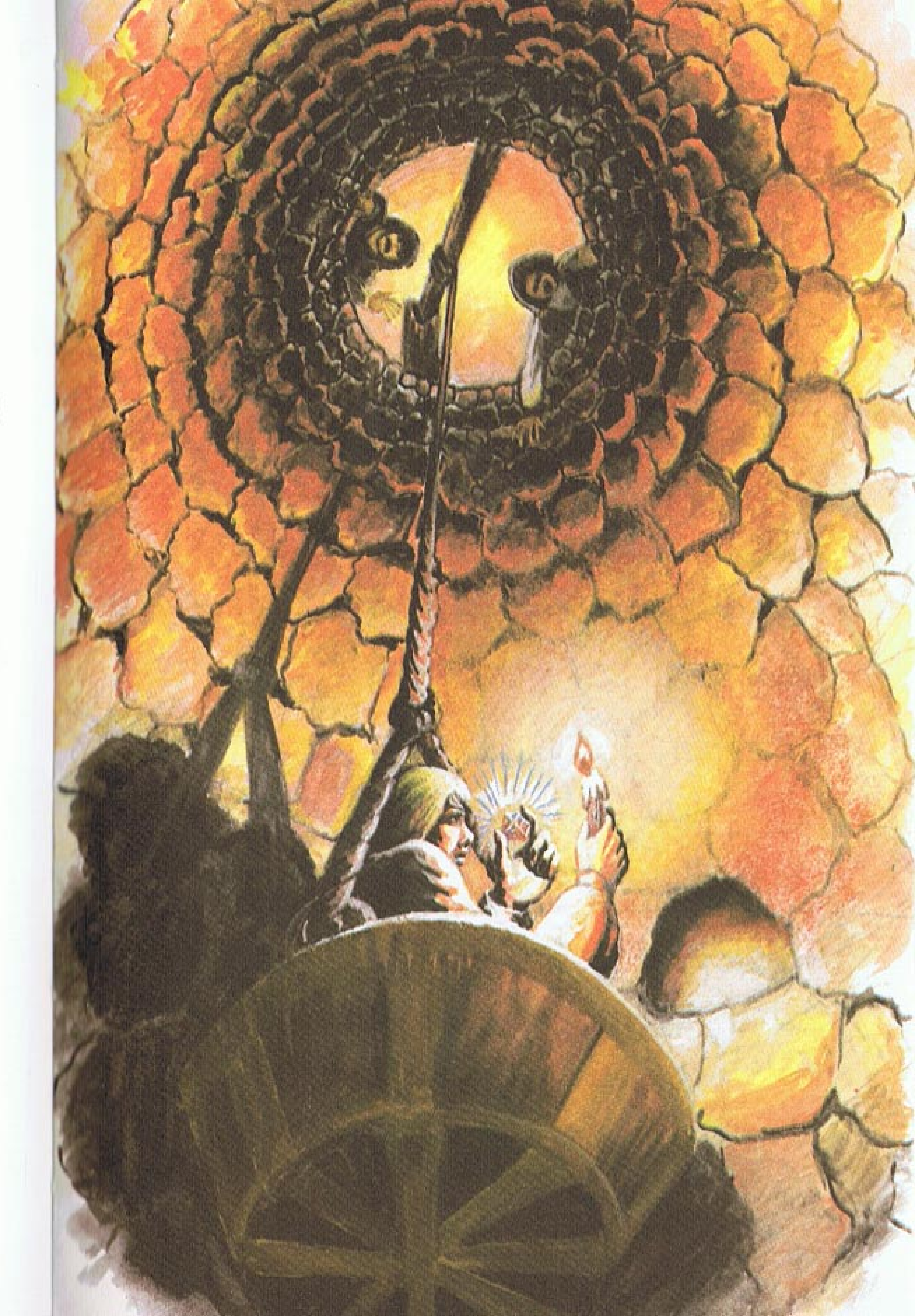
قالَ الرَّجُلُ : « مِنَ ٱلأَفْضَلِ أَنْ تُناوِلَني ٱلماسَةَ ٱلآنَ حَتَّى تَتَمَكَّنَ يَداكَ مِنَ ٱلإِمْساكِ بِالدَّلْوِ . »

قُلْتُ : « لا ، لا . دَعْني أَصْعَدُ أَوَّلاً . »

فَصَرَخَ غاضِبًا : « أَعْطِني ٱلجَوْهَرَةَ . »

فَٱنْتَهَرَهُ إِلْزِقير قائِلاً : « دَعْهُ يَتَصَرَّفُ كَما يَشاءُ . إِنَّها جَوْهَرَتُهُ يَفْعَلُ بِها ما يُريدُ ، وَسَيَكونُ لَكَ ثُلُثُ ٱلمَبْلَغِ الَّذي سَنَحْصُلُ عَلَيْهِ بَعْدَ بَيْعِها ، كَما سَبَقَ أَنْ وَعَدْتُكَ . »

رَدَّ الرَّجُلُ غاضِبًا : « هٰذِهِ ٱلجَوْهَرَةُ لَيْسَتْ مِلْكًا لِأَيٍّ مِنْكُما . فَٱلبِئْرُ بِئْري ، وَلَقَدْ سَمَحْتُ لَكَ بِٱلهُبوطِ فيها عَلى أَنْ نَقْتَسِمَ ثَمَنَ ٱلجَوْهَرَةِ بَعْدَ بَيْعِها ، أَمَّا



هٰذا الصَّبيُّ فَتَكْفيهِ قِطْعةُ نُقودٍ ذَهَبيَّةٌ . »

رَدَّ إلْزِقير غاضِبًا : « لا تَكُنْ غَبيًّا ، إنَّ هٰذا الصَّبيَّ سَيَأْخُذُ نَصيبَهُ كامِلاً . »

قالَ الرَّجُلُ ساخِرًا : « ها ، ها ! مَنْ مِنَّا ٱلغَبيُّ ؟ أنا أَمْ أَنْتَ ؟ إنِّي أَعْرِفُ أَنَّ اسْمَكَ إلْزِقير وَ أَنَّ هُناكَ مُكافأَةً بِمَبْلَغِ خَمْسينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَقْبِضُ عَلَيْكَ ، وَكَذٰلِكَ مُكافأَةً بِمَبْلَغِ عِشْرينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَقْبِضُ على الصَّبيِّ . إنَّكُما سَجينانِ هُنا وَلَنْ تَتْرُكا هٰذِهِ ٱلغُرْفَةَ حَتَّى تَكونَ ٱلماسَةُ في قَبْضَةِ يَدي . »

أَخْفَيْتُ ٱلماسَةَ في مَأْمَنٍ داخِلَ مَلابِسي وَعَزَمْتُ أَنْ أُناضِلَ مِنْ أَجْلِها بِكُلِّ ما في وُسْعي .

نَظَرْتُ إلى أَعْلى فَإذا بِالرَّجُلِ يَشْهَرُ مُسَدَّسَهُ ، فَصَرَخْتُ بِإلْزِقير مُحَذِّرًا ، فَهَدَّدَهُ الرَّجُلُ قائِلاً : « لَوْ تَحَرَّكْتَ فَسَأُطْلِقُ عَلَيْكَ النَّارَ ، وَأَفوزُ بِجائِزَةِ ٱلخَمْسينَ جُنَيْهًا . » ثُمَّ أَطْلَقَ النَّارَ .

كانَ إلْزِقير واقِفًا على ٱلجانِبِ ٱلمُقابِلِ لَهُ مِنَ ٱلبِئْرِ . وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الرَّجُلَ لابُدَّ أَنْ يُصيبَهُ لِقُرْبِ ٱلمَسافَةِ بَيْنَهُما ، إلَّا أَنَّ الرَّصاصَةَ طاشَتْ وَأَصابَتْ جانِبَ ٱلبِئْرِ وَنَجا إلْزِقير ، وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ عَلى الرَّجُلِ وَأَحاطَ عُنُقَهُ بِيَدَيْهِ ضاغِطًا عَلَيْهِ . وَكانَ الرَّجُلُ أَصْغَرَ سِنًّا مِنْ إلْزِقير ، وَلٰكِنَّ إلْزِقير كانَ يَفوقُهُ قُوَّةً وَمَهارَةً .

وَنَشِبَ بَيْنَهُما صِراعٌ رَهيبٌ ، وَكانَ إلْزِقير يُناضِلُ نِضالَ ٱلحَياةِ أَوِ ٱلمَوْتِ .

وَاسْتَطَعْتُ ٱلخُروجَ مِنَ ٱلبِئْرِ بِمَشَقَّةٍ ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ إلْزِقير لَمْ يَعُدْ في حاجَةٍ

لِمُساعَدَتي . فَقَدْ كانَتْ تَلوحُ عَلى وَجْهِ ٱلحارِسِ سِماتُ ٱلإعْياءِ وَالدَّهْشَةِ ، فَقَدْ كانَ يَتَوَقَّعُ فَوْزًا سَهْلاً . فَإذا بِهِ أَمامَ خَصْمٍ جَبَّارٍ عَنيدٍ . وَأَمْسَكَ إلْزِقير بِهِ وَرَفَعَهُ لِيُلْقِيَهُ عَلى ٱلأَرْضِ وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ طَوَّقَهُ بِذِراعَيْهِ ، مُحاوِلاً أَنْ يَقْبِضَ عَلى عُنُقِهِ بِيَدَيْهِ ، فَدَفَعَهُ إلْزِقير عَلى ٱلأَرْضِ فَلَمْ يَسْقُطْ بَلْ تَقَهْقَرَ بِضْعَ خُطُواتٍ أَوْصَلَتْهُ إلى حافَةِ ٱلبِئْرِ ٱلمُبَلَّلَةِ ، فَانْزَلَقَتْ قَدَماهُ وَهَوَى بِجَسَدِهِ . وَحاوَلْتُ إنْقاذَهُ مِنَ السُّقوطِ في ٱلبِئْرِ فَلَمْ أُفْلِحْ ، إلَّا أَنَّ يَدي أَمْسَكَتْ بِٱلمَفاتيحِ الَّتي كانَتْ مُعَلَّقَةً في جانِبِهِ ، فَبَقِيَتْ في يَدي وَسَقَطَ الرَّجُلُ في ٱلبِئْرِ . وَسَمِعْنا صَوْتَ ارْتِطامِ جِسْمِهِ بِٱلماءِ ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ صَمْتٌ رَهيبٌ .

قَفَزَ إلْزِقير بِسُرْعَةٍ في الدَّلْوِ قائِلاً : « ساعِدْني في ٱلهُبوطِ لِأُحاوِلَ إنْقاذَهُ . » فَفَعَلْتُ ، وَوَقَفْتُ فَوْقَ حافَةِ ٱلبِئْرِ أَنْظُرُ مُنْصِتًا إلى أَنْ صَرَخَ يَقولُ : « دَعْني أَصْعَدُ . »

صَعِدَ وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ ماتَ ، فَقُلْتُ : « دَعْنا نُلْقي بِٱلماسَةِ وَراءَهُ فَهِيَ لا تَجْلِبُ إلَّا ٱلمَوْتَ وَالشُّؤْمَ . »

قالَ إلْزِقير : « لا ، أَعْطِني إيَّاها . إنَّها جَوْهَرَتُكَ وَسَأَحْتَفِظُ بِها لَكَ ، فَلَسْتُ بِحاجَةٍ لِلْمالِ . » وَأَخَذَها مِنّي .

وَصَلْنا إلى النُّزُلِ سالِمَيْنِ ، وَلَمْ نَقُصَّ عَلى صاحِبِ النُّزُلِ ما حَدَثَ ، بَلْ قُلْنا لَهُ إنَّ أَعْمالَنا تُحَتِّمُ عَلَيْنا سُرْعَةَ الرَّحيلِ ، فَأَخْبَرَنا بِوُجودِ سَفينَةٍ هولَنْدِيَّةٍ توشِكُ عَلى ٱلإقْلاعِ إلى هولَنْدا .

الفَصلُ الثَّامِنَ عشَرَ

ضَياعُ آلماسـةِ

أَبْحَرْنا إلى هولَنْدا ، ووَصَلْنا إلى لاهاي ، وَهي خَيْرُ مَكانٍ في آلعالَمِ لِتجـارةِ آلمـاسِ . وَكانَ إلْزِقْير مُلِمًّا بِبَعْضِ كَلِماتِ اللُّغةِ آلهولَنْديَّة . وَبَدَأَ يَطوفُ في آلمَـدينةِ بَحْثًا عَنْ رَجُلٍ يُمكِنُهُ شِراءُ آلماسةِ . وَأَخيرًا سَمِعَ عَنْ شَخْصٍ يُدْعَى أَلْدوبراند ، مِنْ أَشْهَرِ تُجَّارِ آلماسِ وَأَغْناهُمْ في لاهاي .

ذَهَبْنا إلى مَنْزِلِه ذاتَ مَساءٍ ، قَبْلَ آلغُروبِ بِساعةٍ تَقْريبًا ، فَوَجَدْنا آلمَنْزِلَ مُكَـوَّنًـا مِنْ مَبْنى مُنْخَفِضِ آلجُـدْرانِ ، مَطْلِيٍّ باللَّوْنِ آلأَبْيَضِ ، نَوافِذُهُ خَضْراءُ ، وَلَهُ حَديقةٌ خَلْفيَّةٌ وَيَبْعُدُ عَنِ الشَّارِعِ قَليلاً ، وَوُضِعَتْ عَلى واجِهَتِهِ لافِتةٌ تَقولُ : « مَحَلُّ تِجارةٍ : بَيْعٌ وَشِراء لِلْماسِ . »

فَتحَ لَنا آلبابَ خادِمٌ طَويلُ آلقامةِ قَويُّ آلبِنْيةِ ، وَلَمَّا عَلِمَ مَطْلَبَنا ذَهَبَ لِيُخْبِرَ سَيِّدَهُ . وَبَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ حَضَرَ أَلْدوبراند نَفْسُهُ ، وَكانَ ضَئيلَ آلحَجمِ في حَوالَى السَّبْعينَ مِنْ عُمْرِهِ .

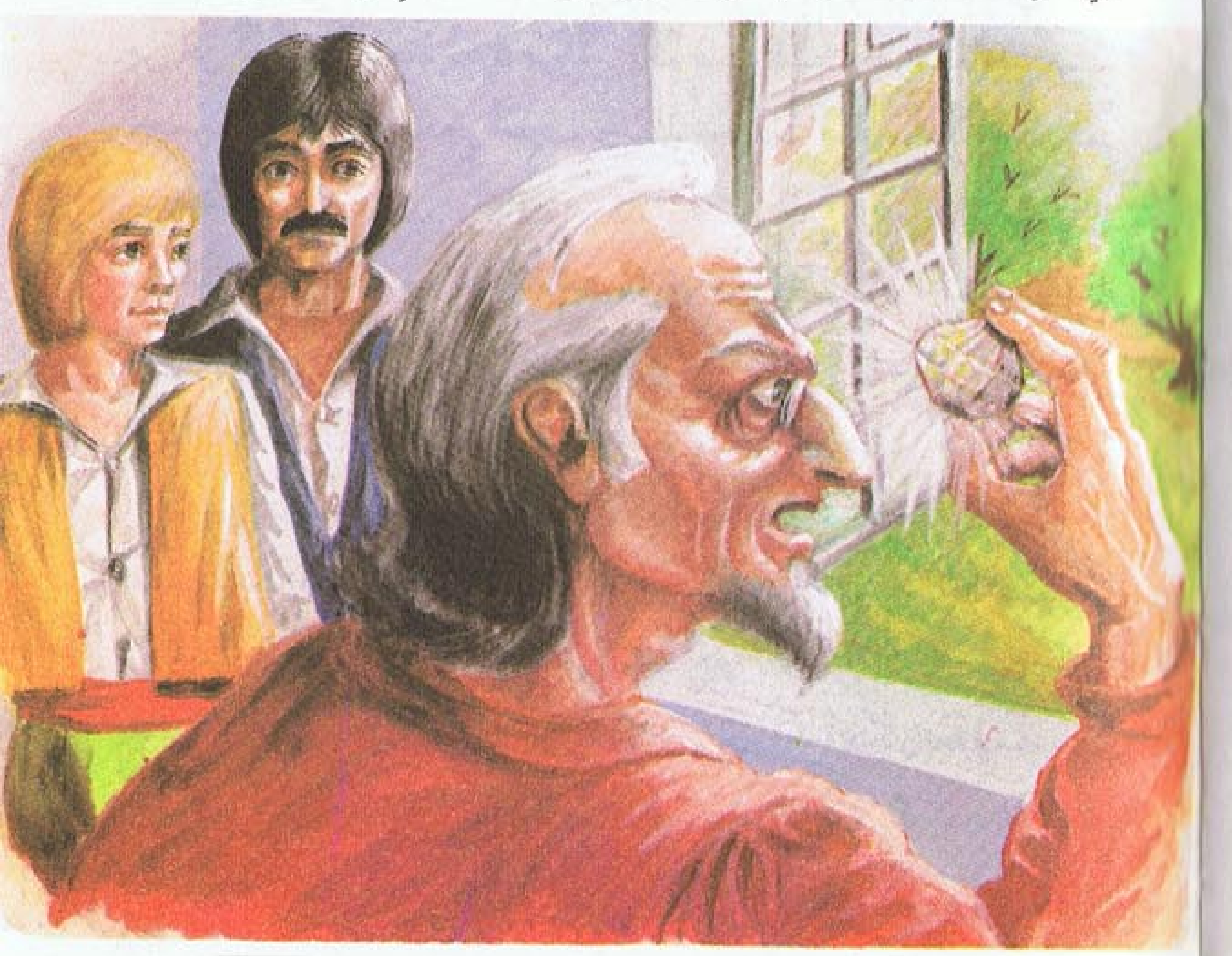
قالَ : « مَرْحبًا بِكُما . سَمِعْتُ أَنَّ مَعَكُما جَوْهرةً لِلْبَيْعِ ، وَأَنا لا أَشْتَري آلجَواهِرَ آلعاديَّة ، وَلا أُريدُ أَنْ أَرى ما مَعَكُما إلَّا إذا كانَ حَقًّا ثَمينًا نادِرًا . »

كانَتِ آلماسةُ في يَدي فَسَلَّمْتُها لَهُ . تَغَيَّرَتْ مَلامِحُ وَجْهِهِ عِنْدَما أَخَذَها

وَشَعَرَ بِثِقْلِها ، ثُمَّ أَمْسَكَها بَيْنَ أَصابِعِهِ وَقالَ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « الضَّوْءُ هُنا لايَكْفي ، تَعالَيا مَعي . »

تَبِعْناهُ إلى غُرْفةٍ في الطَّابَقِ آلعُلْويِّ تُطِلُّ نافِذَتُها عَلى آلحَديقةِ آلخَلْفيَّةِ وَمِنْها بَدَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ آلغارِبـةِ .

جَلَسَ أَلْـدوبراند إلى مِنْضَدةٍ وَأَمْسَكَ بِآلماسةِ وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُها بِدِقَّةٍ في ضَوْءِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ . وَكُنْتُ مُواجِهًا لَهُ وَلَمْ أَشْعُرْ نَحْوَهُ بارْتِياحٍ ، وَفَجْأَةً نَظَرَ إلَيَّ قائِلاً : « ما اسْمُكَ يافَتى ، وَمِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ ؟ » وَبِكُلِّ سَذاجةٍ أَجَبْتُهُ ،



فَرَكَلَني إِلْزِقير يُحَذِّرُني وَلٰكِنْ بَعْدَ فَواتِ ٱلأوانِ . وَكَتَبَ ٱلرَّجُلُ اسْمي وَاسْمَ مونْفِليت ، وَبَدا ذٰلِكَ وَقْتَها شَيْئًا تافِهًا ، وَلَمْ أَدْرِ بِأَنَّ ذٰلِكَ سَيَكونُ نُقْطَةَ تَحَوُّلٍ هامَّةً في مَجْرى حَياتي ، بَعْدَ ذٰلِكَ .

رَدَّدَ الرَّجُلُ اسْمَ مونْفِليت ثُمَّ سَأَلَ : « وَكَيْفَ حَصَلْتَ عَلى هٰذِهِ ٱلجَوْهَرَةِ ؟» وَأَسْرَعَ إِلْزِقير يَقولُ : « لَمْ نَحْضُرْ هُنا للاسْتِجْوابِ ، بَلْ لِبَيْعِ ٱلجَوْهَرَةِ ، فَهَلْ تَسْمَحُ وَتُخبِرُنا بِما تُقَدِّرُهُ ثَمَنًا لَها ، وَكَفاكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّنا إِنْجليزِيّانِ ، وَأَنَّ هٰذِهِ ٱلماسةَ مِلْكٌ شَرْعِيٌّ لَنا . »

قالَ الرَّجُلُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . وَلٰكِنْ يَجِبُ أَنْ أَفْحَصَها جَيِّدًا ، لِأَنّي أَجْهَلُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِها ، فَقَدْ تَكونُ مُزَيَّفَةً . » ثُمَّ صَبَّ عَلَيْها بَعْضَ نُقَطٍ مِنْ سائِلٍ أَخْضَرِ اللَّوْنِ وَحَكَّها بِحَجَرٍ أَسْوَدَ ، وَحينَئِذٍ تَجَمَّدَتْ أَساريرُهُ وَكَأَنَّها قَدْ قُدَّتْ مِنَ الصَّخْرِ .

قالَ : « اسْمَعا ، وَخاصَّةً أَنْتَ يا جون ، يُؤْلِمُني أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلماسةَ لَيْسَتْ حَقيقِيَّةً بَلْ هِيَ قِطْعَةُ زُجاجٍ صُنِعَتْ بِمَهارَةٍ فائِقَةٍ ، وَيُمْكِنُني ٱلقَوْلُ بِأَنَّها أَفْضَلُ قِطْعَةٍ مُزَيَّفَةٍ رَأَيْتُها . »

آلَمَني أَنْ يَكونَ ما عانَيْناهُ مِنْ مَشاقَّ وَمَتاعِبَ مِنْ أَجْلِ قِطْعَةٍ مِنَ الزُّجاجِ . لَقَدْ ضاعَتْ أَحْلامي بِالسَّعادَةِ وَالثَّراءِ . وَشَعَرْتُ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ شَديدَةٍ ، وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيا في وَجْهي وَكِدْتُ أَسْقُطُ عَلى الأَرْضِ ، فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ يَقولُ : « جون ، جون يابُنَيَّ لا تَحْزَنْ هٰكَذا ، إِنَّها قِطْعَةٌ فَنِّيَّةٌ رائِعَةٌ وَسَأُعْطيكَ عَشْرَ قِطَعٍ مِنَ ٱلفِضَّةِ ثَمَنًا لَها . »

قالَ إِلْزِقير : « لَمْ نَأْتِ إِلَيْكَ نَطْلُبُ فِضَّةً ، فاحْتَفِظْ بِٱلفِضَّةِ لِنَفْسِكَ ، وَأَمّا هٰذِهِ فَلا نَرْغَبُ فيها أَيْضًا . » وَأَخَذَ ٱلماسةَ وَأَلْقى بِها مِنَ النّافِذَةِ .

هَبَّ أَلْدوبراند مَذْعورًا ساخِطًا يَقولُ : « يا أَحْمَقُ ، ماذا فَعَلْتَ ؟»

رَأَيْتُ ٱلماسةَ تَقَعُ في ٱلحَديقَةِ بِٱلقُرْبِ مِنْ زَهْرَةٍ كَبيرَةٍ حَمْراءَ . وَخَرَجْنا مِنَ ٱلمَنْزِلِ مُسْرِعَيْنِ صامِتَيْنِ وَعُدْنا إِلى النُّزُلِ لِتَناوُلِ الطَّعامِ . وَبَيْنَما كُنّا نَأْكُلُ نَهَضْتُ فَجْأَةً وَصِحْتُ في إِلْزِقير : « إِنَّنا حَقًّا غَبِيّانِ . إِنَّ ٱلجَوْهَرَةَ ماسةٌ ثَمينَةٌ ، وَلَيْسَتْ مُزَيَّفَةً ، وَقَدْ كَذَبَ عَلَيْنا ذٰلِكَ التّاجِرُ . »

نَظَرَ إِلَيَّ إِلْزِقير مَلِيًّا ثُمَّ قالَ : « قَدْ تَكونُ عَلى حَقٍّ ، وَلٰكِنْ ما ٱلعَمَلُ ٱلآنَ وَقَدْ أَلْقَيْتُ بِٱلماسةِ مِنَ النّافِذَةِ ؟»

قُلْتُ : « لَقَدْ رَأَيْتُ ٱلمَكانَ الَّذي سَقَطَتْ فيهِ بِٱلحَديقَةِ . هَيّا بِنا نَسْتَرِدُّها . »

قالَ : « هَلْ تَظُنُّ أَنَّ أَلْدوبراند رَأى ذٰلِكَ أَيْضًا وَعَرَفَ مَكانَها ؟» تَذَكَّرْتُ كَيْفَ أَطَلَّ أَلْدوبراند مِنَ النّافِذَةِ حينَ سَقَطَتِ ٱلماسةُ ، وَقُلْتُ : « لا أَدْري وَلٰكِنْ دَعْنا نَذْهَبُ إِلى هُناكَ لِنَرى وَنَتَأَكَّدَ . لَقَدْ سَقَطَتْ عِنْدَ ساقِ زَهْرَةٍ حَمْراءَ كَبيرَةٍ . هَيّا بِنا . »

صَمَتَ إِلْزِقير لَحْظَةً وَقالَ : « أَشْعُرُ بِأَنَّكَ عَلى صَوابٍ ، وَأَنَّ ٱلماسةَ جَوْهَرَةٌ ثَمينَةٌ ، وَلٰكِنّي أَشْعُرُ بِأَنَّنا سَنَكونُ أَسْعَدَ حَظًّا بِدونِها . فَمُنْذُ عَلِمْنا بِوُجودِها ، وَنَحْنُ لا نُصادِفُ غَيْرَ ٱلمَتاعِبِ . وَها نَحْنُ أُولاءِ غَريبانِ بَعيدانِ

عَنْ وَطَنِنا وَقَدْ ماتَ رَجُلانِ . أَفَلَيْسَ مِنَ ٱلأَفْضَلِ أَنْ نَتْرُكَها حَيْثُ سَقَطَتْ ؟ »
وَلٰكِنِّي أَرَدْتُ اسْتِرْجاعَ ٱلجَوْهَرَةِ ، وَأَقْنَعْتُ إِلْزِفير بِمَشَقَّةٍ أَنْ يَذْهَبَ مَعي لِاسْتِرْدادِها .

كانَ اللَّيْلُ مُتَأَخِّرًا حينَ تَسَلَّقْنا جِدارَ حَديقَةِ مَنْزِلِ أَلْدوبراند . وَأَسْرَعْتُ إِلى الزَّهْرَةِ ٱلحَمْراءِ ، وَلٰكِنَّ ٱلماسَةَ كانَتْ قَدِ اخْتَفَتْ ، فَبَحَثْتُ حَوْلَ ٱلمَكانِ دونَ جَدْوَى . لَقَدْ أَخَذَها أَلْدوبراند . وَشَخَصْتُ بِبَصَري إِلى أَعْلى فَإِذا بِنورٍ يَنْبَعِثُ مِنْ نافِذَتِهِ .

تَسَلَّقْتُ ٱلحائِطَ إِلى النَّافِذَةِ ، وَتَطَلَّعْتُ إِلى الدَّاخِلِ ، فَرَأَيْتُ أَلْدوبراند جالِسًا أَمامَ مِنْضَدَةٍ وَأَمامَهُ الماسَةُ : ماسَتي الثَّمينَةُ وَمَعَها عِدَّةُ ماساتٍ أُخْرَى ، وَلٰكِنَّها كانَتْ تَفوقُها جَميعًا بَهاءً وَحَجْمًا ، وَكَأَنَّما كانَتْ تُناديني وَتَقولُ : « اُنْظُرْ ، أَلَسْتُ أَنا مَلِكَةً عَلى كُلِّ هٰذِهِ ؟ أَلا تَأْخُذُني ؟ »

وَشَعَرْتُ بِيَدِ إِلْزِفير تَجْذِبُني مِنْ ذِراعي وَهُوَ يَقولُ : « تَعالَ ، تَعالَ . اِتْرُكْها فَلَنْ تَجْلُبَ لَنا سِوَى الشَّقاءِ وَٱلمَتاعِبِ . هَيَّا بِنا يا جُون . »

وَلٰكِنِّي لَمْ أَسْتَمِعْ لِكَلامِهِ ، وَأَلْقَيْتُ بِنَفْسي عَلى النَّافِذَةِ فَسَقَطْتُ داخِلَ ٱلحُجْرَةِ . وَهَبَّ أَلْدوبراند مَذْعورًا يُنادي : « النَّجْدَةَ ! النَّجْدَةَ ! لُصوصٌ ، لُصوصٌ . » فَأَسْرَعْتُ إِلى ٱلمِنْضَدَةِ وَوَضَعْتُ يَدي فَوْقَ يَدِ التَّاجِرِ لِأُمْسِكَ ٱلماسَةَ ، وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها أَسْرَعَ سِتَّةٌ مِنَ ٱلخَدَمِ بِالدُّخولِ وَأَمْسَكوا بِنا .



اَلفَصلُ التَّاسِعَ عَشَر

السِّجْنُ

قُدِّمْنا لِلْمُحاكَمةِ ، وَلَمْ يُصَدِّقِ ٱلقاضي رِوايَتَنا ، وَلا أَلومُهُ على ذٰلِك . وَبَعْدَ أَيّامٍ قَليلةٍ أُودِعْنا السِّجْنَ .

مَضَى عَلَيْنا أُسْبوعٌ في السِّجْنِ ، ثُمَّ حَضَرَ ٱلحارِسُ صَباحَ يَوْمٍ وَأَخَذَني إلى كُوخٍ صَغيرٍ ، وَأَجْلَسَني عَلى كُرْسيٍّ في وَسَطِ ٱلكــوخِ ، ثُمَّ أَوْثَقَني بِٱلحِبالِ وَأَحْكَمَ رِباطي إلى ٱلكُرْسيِّ .

رَأَيْتُ في أَرْضِ ٱلغُرْفَةِ نارًا مُوقَدةً ، كَما شَمَمْتُ رائِحةَ شَيْءٍ كَريهةً فَشَعَرْتُ بِٱلخَوْفِ مِمّا قَدْ يَفْعَلونَ بي . وَصَدَقَ شُعوري ، فَقَدْ وَسَموا بِالنّارِ عَلى وَجْهي حَرْفَ ٧ وَهوَ أَوَّلُ حَرْفٍ مِنَ ٱلكَلِمةِ ٱلهولَنْديَّةِ الَّتي سُمِّيَ بِها السِّجْنُ ، وَكانَتْ كَذٰلِكَ شِعارَ أُسْرةِ مُوهُــون .

وَبَعْـدَ بِضْعةِ أَيّامٍ ٱلْتَقَيْتُ بِٱلزِّقير ، وَكانَ أَيْضًا يَحْمِلُ ٱلعَلامَةَ نَفْسَها . وَهٰكَذا تَعاقَبَتِ السِّنونُ ، وَكُلُّ يَوْمٍ مِثْلُ سابِقِهِ : نَخْرُجُ لِلْعَمَلِ وَنَعودُ لِنَأْكُلَ وَنَنامَ وَنَنْسَى .

اَلفَصْلُ ٱلعِشْرون

اَلعاصِــفَةُ

في السَّنةِ ٱلعاشِرةِ ، حَضَرَ ٱلحُرّاسُ كَعادَتِهِمْ ، وَاقْتادونا . إلّا أَنَّهُمْ لَمْ يَسيروا بِنا إلى مَكانِ ٱلعَمَلِ ٱلمُعْتادِ ، بَلْ تَقابَلْنا مَعَ فِرْقةٍ مِنَ ٱلجُنْدِ وَسِرْنا مَعَهُمْ إلى لاهاي . وَهُناكَ عَلِمْنا بِأَنَّنا سَنُبْحِرُ مِنْها إلى جاوَه ، الَّتي تَبْعُدُ آلافَ ٱلكيلو مِتْراتٍ عَنِ ٱلهِنْـدِ نَفْسِهـا ، حَيْثُ سَنَعْمَلُ في حُقولِ قَصَبِ السُّكَّرِ التّابِعةِ لِلْحُكومةِ ٱلهولَنْديَّةِ . وَبِهٰذا النَّبَإِ انْتَهَتْ أَحْلامي ، فَلَنْ أَسْتَطيعَ بَعْدَ ذٰلِكَ رُؤْيةَ غْريس أَوِ ٱلعَوْدةَ إلى مونْفِليت . وَكُنْتُ طَوالَ عَشْرِ السِّنينَ ٱلماضيةِ أَحْلُمُ بِٱلفِرارِ ، وَبِأَنّي سَأَكونُ حُرًّا ! وَلٰكِنْ ذَهَبَتْ كُلُّ هٰذِهِ ٱلأَحْلامِ هَبــاءً .

وَأَثْناءَ سَيْري رَأَيْتُ إلزِّقير وَقَدِ ابْيَضَّ شَعْرُهُ وَأَصْبَحَ كَهْلًا . وَتَذَكَّرْتُ صورَتَهُ في تِلْكَ اللَّيْلةِ في هُورْهِـدْ وَكَيْفَ كانَ رَجُلًا قَوِيًّا أَسْوَدَ الشَّعْرِ شَديدَ ٱلعَزْمِ وَٱلبَطْشِ ، ثُمَّ تَخَيَّلْتُ غْريس جالِسةً في ٱلحَديقةِ ، وَصَوْتُها ٱلحُلْوُ يُحَذِّرُني مِنَ التَّمَسُّكِ بِٱلماسةِ الَّتي تَعْتَقِدُ أَنَّها تَجُرُّ مَعَها الشَّقاءَ وَٱلمَتاعِبَ ، وَهٰذا ما حَدَثَ فِعْلًا .

أَخيرًا وَصَلْنا إلى السَّفينةِ ، وَكَمْ سَعِدْتُ أَنْ أَرى ٱلبَحْرَ ثانيةً وَأَتَنَسَّمَ هَواءَهُ ؛ وَكَمْ حَزِنْتُ لِفِراقِ شَواطِئِ قارَّتِنا ٱلمَحْبوبةِ وَالرَّحيلِ إلى أَقاصي ٱلعالَمِ .

مَرَّ عَلَيْنا يَوْمانِ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ . وَهَبَّتْ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ . وَكانَ بِالسَّفينَةِ عِشْرونَ سَجينًا آخَرَ ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ بَحّارَةٌ غَيْرُنا ؛ وَقَدْ تَمَلَّكَهُمُ الخَوْفُ جَميعًا ، وَلَمْ أُبالِ أَنا وَ إِلْزِقير بِالعاصِفَةِ أَوَّلَ الأَمْرِ .

اشْتَدَّتِ الرِّيحُ ، وَقالَ إِلْزِقير : « لَقَدْ عَرَفْتُ سُفُنًا أَقْوى وَ أَمْتَنَ مِنْ هٰذِهِ السَّفينَةِ حَطَّمَتْها عَواصِفُ أَقَلُّ حِدَّةً مِنْ هٰذِهِ العاصِفَةِ . وَ أَعْتَقِدُ أَنَّنا ما زِلْنا قَريبينَ مِنَ الشّاطِئِ ، وَ أَرْجو أَلّا تَدْفَعَنا الرِّياحُ إِلَيْهِ حَتّى لا نَرْتَطِمَ بِصُخورِهِ . »

وَ بَيْنَما هوَ يَتَكَلَّمُ ، فُتِحَ البابُ وَ دَخَلَ عَلَيْنا رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ مِنَ الجُنودِ الَّذينَ يُحْضِرونَ لَنا الطَّعامَ كَالمُعْتادِ ، بَلْ كانَ البَحّارَ الوَحيدَ الَّذي بَقِيَ عَلى السَّفينَةِ ، ثُمَّ أَلْقى إِلَيْنا بِمِفْتاحٍ وَقالَ : « خُذوهُ ، وَأَسْرِعوا وَلْيَكُنِ اللّهُ في عَوْنِكُمْ . »

أَدْرَكَ إِلْزِقير مَعْنى ما قالَهُ البَحّارُ ، وَ أَمْسَكَ بِالمِفْتاحِ قائِلًا : « إِنَّ السَّفينَةَ تَغْرَقُ ، وَقَدْ أَعْطونا الفُرْصَةَ لِنَنْجوَ بِأَنْفُسِنا . » ثُمَّ أَطْلَقَ سَراحَ نَفْسِهِ وَ سَراحِيَ وَ سَراحَ الآخَرينَ ، وَ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَ مَعَ إِلْزِقير إِلى ظَهْرِ السَّفينَةِ . وَ وَجَدْنا أَنْفُسَنا مَعَ بَقِيَّةِ السُّجَناءِ وَحْدَنا . أَمّا الجُنودُ وَ المَلّاحونَ فَقَدْ هَجَروا السَّفينَةَ وَرَكِبوا قَوارِبَ صَغيرَةً لِلنَّجاةِ .

أَشارَ إِلْزِقير إِلى شَيْءٍ ، وَ صَرَخَ في أُذُني حَتّى أَسْمَعَ صَوْتَهُ وَسْطَ ضَجيجِ العاصِفَةِ : « نَحْنُ قَريبونَ مِنَ الشّاطِئِ . »

وَمَرَّتْ مَوْجَةٌ قَوِيَّةٌ قَذَفَتْ بِنا نَحْوَ الشّاطِئِ . وَرَأَيْتُ تَلًّا يَعْلو في السَّماءِ

ذَكَّرَني بِمَشْهَدٍ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ . لَقَدْ كُنّا في خَليجٍ ، وَكُنْتُ أَرى شاطِئَ ذٰلِكَ الخَليجِ حَيْثُ تَلْتَقي الأَمْواجُ بِالصُّخورِ .

غَمَزَني إِلْزِقير في يَدي صائِحًا : « أُنْظُرْ . » ، فَنَظَرْتُ وَ أَدْرَكْتُ أَنَّنا في خَليجِ مونْفِليت ، وَرَأَيْتُ وَجْهَ إِلْزِقير يَتَهَلَّلُ فَرَحًا وَسَمِعْتُهُ يَقولُ : « يا لَلسَّماءِ ! إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ الواسِعَةَ قَدْ أَدْرَكَتْنا ، وَ أَعادَتْنا إِلى أَوْطانِنا . إِنّي أُفَضِّلُ المَوْتَ هُنا في خَليجِ مونْفِليت ، عَلى أَنْ أَعودَ لِحَياةِ السُّجونِ . وَ إِذا كانَ المَوْتُ سَيُدْرِكُنا لا مَحالَةَ فَلَيْسَ مَعْنى ذٰلِكَ أَنْ نَسْتَسْلِمَ ، وَلٰكِنْ دَعْنا نُناضِلُ مِنْ أَجْلِ الحَياةِ . »

وَقَفَ باقي السُّجَناءِ يَرْتَعِدونَ هَلَعًا ، وَسَجَدَ بَعْضُهُمْ تَوَسُّلًا لِإِلْزِقير أَنْ يُساعِدَهُمْ ، في إِنْزالِ القارِبِ الوَحيدِ المُتَبَقّي بِالسَّفينَةِ ، فَقالَ إِلْزِقير بِصَوْتٍ عالٍ لِيَسْمَعَ الرِّجالُ وَسْطَ زَمْجَرَةِ الأَمْواجِ : « إِخْواني ! صَدِّقوني ، إِنَّ أَيَّ شَخْصٍ يُخاطِرُ بِنَفْسِهِ وَيَنْزِلُ البَحْرَ في ذٰلِكَ القارِبِ هالِكٌ لا مَحالَةَ . فَإِنّي أَعْرِفُ طَبيعَةَ هٰذا الخَليجِ ، وَ إِذا أَرَدْتُمُ الحَياةَ فَابْقوا عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ . فَفي خِلالِ نِصْفِ ساعَةٍ سَنَقْتَرِبُ مِنَ الشّاطِئِ ، وَمِنْ ثَمَّ سَتَكونُ لِكُلِّ رَجُلٍ فُرْصَتُهُ في إِنْقاذِ نَفْسِهِ . »

لَمْ يَعْبَأِ الرِّجالُ بِتَحْذيرِهِ وَأَخَذوا القارِبَ ، وَنَزَلوا البَحْرَ وَ بَقينا نَحْنُ الاثْنَيْنِ وَحْدَنا عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ . وَ كانَ إِلْزِقير يَقودُها نَحْوَ الشّاطِئِ . وَ عِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ السّاحِلِ ارْتَفَعَ صَوْتُ المَوْجِ وَهوَ يَرْتَطِمُ بِالصَّخْرِ ، وَ كَثيرًا ما سَمِعْتُ ذٰلِكَ الصَّوْتَ مِنْ قَبْلُ ؛ فَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ قَضَيْتُها في بَيْتِ خالَتي وَأَنا أَسْمَعُهُ !



وَمَرَّتْ في مُخَيِّلَتي أَحْداثُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتي وَقَفَ فيها راتْسي وَ رِفاقُهُ يُراقِبونَ سَفينَةً تُحَطِّمُها ٱلأَمْواجُ ، وَهُمْ لا يَقْدِرونَ عَلى نَجْدَتِها ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ إِلْزِڤير يَصْرُخُ : « أُنْظُرْ ! أُنْظُرْ . هُناكَ ضَوْءٌ يَتَلأْلأُ خِلالَ الظَّلامِ وَ ٱلأَمْطارِ . » وَرَأَيْتُ ضَوْءًا ، ضَوْءًا يَتَلأْلأُ كَجَوْهَرَةٍ .

قالَ إِلْزِڤير : « هٰذِهِ مَنارَةُ ماسْكيو . » فَأَدْرَكْتُ أَنَّ غْريس لا تَزالُ عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ وَ أَنَّها حافَظَتْ عَلى وَعْدِها ، وَ ما زالَتْ تَتَرَقَّبُ عَوْدَتي ، وَ أَنِّي في الطَّريقِ إِلَيْها ، وَ لٰكِنَّهُ طَريقٌ مَحْفوفٌ بِٱلمَخاطِرِ ، يُهَدِّدُ بِٱلمَوْتِ !

اِقْتَرَبْنا جِدًّا مِنَ السَّاحِلِ وَ ما زالَتِ ٱلأَمْواجُ تَعْلو وَتُزَمْجِرُ فَوْقَنا . وَرَأَيْنا عَلى السَّاحِلِ نورًا أَزْرَقَ ؛ فَقَدْ كانَ النَّاسُ يَسْتَعِدُّونَ لِتَقْديمِ النَّجْدَةِ ، وَلٰكِنَّنا لَمْ نَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُمْ بِوُضوحٍ . وَقَفوا يُراقِبونَ السَّفينَةَ وَلا يَعْلَمونَ أَنَّها تَحْمِلُ شَخْصَيْنِ فَقَطْ ، وَ أَنَّ الشَّخْصَيْنِ مِنْ أَبْناءِ بَلْدَتِهِمْ مونْفْليت .

أَدارَ إِلْزِڤير دَفَّةَ السَّفينَةِ نَحْوَ النّورِ ٱلأَزْرَقِ ، وَعِنْدَما ٱقْتَرَبْنا مِنَ الشَّاطِئِ ٱمْتَزَجَ صَوْتُ الرِّياحِ الصَّاخِبَةِ بِصَوْتِ ٱلأَمْواجِ ٱلمُرْتَطِمَةِ بِالصُّخورِ ، وَأَحْدَثا ضَجَّةً رَهيبَةً .

قالَ إِلْزِڤير : « اسْتَعِدَّ ! » فَأَمْسَكْتُ بِشَيْءٍ مّا وَجَدْتُهُ قَريبًا مِنِّي ، وَ غَطَّتِ ٱلأَمْواجُ ظَهْرَ السَّفينَةِ الَّتي أَخَذَتْ تَتَحَطَّمُ قِطْعَةً بَعْدَ قِطْعَةٍ ، ثُمَّ قالَ إِلْزِڤير : « يَجِبُ أَنْ نَتْرُكَ السَّفينَةَ بَعْدَ ٱلمَوْجَةِ ٱلكَبيرَةِ ٱلمُقْبِلَةِ . أُنْظُرْ إِلَيَّ ، وَعِنْدَما

أَقْفِزُ ، اقْفِزْ أَنْتَ أَيْضًا ، وَلْيَحْفَظْنا اللّهُ . » وَشَدَّ عَلى يَدي ، وَوَقَفْنا جَنْبًا إِلى جَنْبٍ نَنْظُرُ ، وَقَدْ بَدا آلماءُ بَيْنَنا وَبَيْنَ السّاحِلِ كُتْلَةً بَيْضاءَ تَفورُ وَتَغْلي .

قَفَزْنا ، فَوَقَعْتُ عَلى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ في بُقْعَةٍ بَلَغَ عُمْقُ آلمِياهِ فيها مِقْدارَ مِتْرٍ . وَعِنْدَما وَقَفْتُ رَأَيْتُ صَفًّا مِنَ الرِّجالِ مُتَشابِكي آلأَيْدي يُحاوِلونَ آلوُصولَ إِلَيَّ ، وَسَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَصْرُخُ ، وَكانَ إِلْزِقير بِجانِبي فَتَقَدَّمْنا إِلَيْهِمْ مَعًا وَأَيْدينا مَمْدودَةٌ إِلى مَنْ أَرادوا مُساعَدَتَنا . وَحينَئِذٍ دَفَعَتْني مَوْجَةٌ مِنَ آلخَلْفِ فَسَقَطْتُ وَلٰكِنّي تَعَلَّقْتُ بِقِطْعَةِ خَشَبٍ عائِمَةٍ ، وَأَقْبَلَ إِلْزِقير وَساعَدَني عَلى النُّهوضِ .

دَوّى صَوْتُ آلأَمْواجِ في أُذُني ، وَسَمِعْتُ صُراخَ آلواقِفينَ عَلى الشّاطِئِ ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِمَنْ يُمْسِكُ بِيَدي .

اَلفَصْلُ آلحادِي وَ آلعِشْرونَ

اَلْبَيْــتُ

مَضَتْ عِدَّةُ ساعاتٍ وَأَنا غارِقٌ في نَوْمٍ عَميقٍ وَلا أَدْري بِما حَوْلي ، وَعِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُني راقِدًا فَوْقَ فِراشٍ قَريبٍ مِنَ آلمِدْفَأَةِ . وَرَأَيْتُ رَجُلَيْنِ جالِسَيْنِ بِآلقُرْبِ مِنَ آلمِنْضَدَةِ ، وَسَمِعْتُ أَحَدَهُما يَقولُ : « لَقَدْ اسْتَيْقَظَ ، وَسَوْفَ يَعيشُ وَيُخْبِرُنا بِقِصَّتِهِ . أَعْطِهِ شَرابًا ساخِنًا ، فَاللَّيْلَةُ بارِدَةٌ جِدًّا . أَتَعْلَمُ أَنّي لَمْ أَطَأْ عَتَبَةَ هٰذا النُّزُلِ مُنْذُ تَرَكَهُ إِلْزِقير ، أَيْ مِنْ حَوالَى عَشْرِ سَنَواتٍ ؟ »

صَرَخْتُ : « أَيْنَ هُوَ ؟ » وَجَلَسْتُ وَجَعَلْتُ أَتَلَفَّتُ حَوْلي عَلَّهُ يَكونُ نائِمًا بِآلقُرْبِ مِنّي .

قالَ الرَّجُلُ : « هَدِّئْ رَوْعَكَ يا هٰذا ، وَعُدْ إِلى الرُّقادِ وَالنَّوْمِ . » ثُمَّ اسْتَدارَ إِلى الرَّجُلِ آلآخَرِ وَقالَ : « إِنَّهُ يَهْذي . »

قُلْتُ : « كَلّا ، أَنا لا أَهْذي ! أَنا في كامِلِ وَعْيي ، وَأُريدُ أَنْ أَعْرِفَ أَيْنَ إِلْزِقير بْلوك ؟ »

تَبادَلَ الرَّجُلانِ النَّظَراتِ وَنَهَضَ أَحَدُهُما وَأَقْبَلَ نَحْوي عِنْدَما نَطَقْتُ اسْمَ إِلْزِقير بْلوك ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ راتْسي .

سَأَلَني : « مَنْ أَنْتَ ؟ هَلْ تَعْرِفُ إِلْزِقير بْلوك ؟ »

قُلْتُ : « أَلا تَعْرِفُني يا راتْسي ؟ إِنِّي أَتَذَكَّرُكَ رَغْمَ أَنَّني تَرَكْتُ هٰذِهِ ٱلبِقاعَ مُنْذُ أَمَدٍ طَويلٍ . بِرَبِّكَ أَخْبِرْني أَيْنَ إِلْزِقير ؟ »

أَمْسَكَ راتْسي بِيَدَيَّ وَ انْهالَ عَلَيَّ بِٱلأَسْئِلَةِ : « أَيْنَ وَمَتى وَكَيْفَ ؟ »

وَلٰكِنِّي قُلْتُ : « قَبْلَ أَنْ أَقولَ أَيَّ شَيْءٍ ، قُلْ لي أَنْتَ أَيْنَ إِلْزِقير . »

قالَ : « لا أَعْلَمُ . »

قُلْتُ : « كَيْفَ لا تَعْلَمُ وَقَدْ كانَ مَعي ، وَهوَ الَّذي أَنْقَذَني وَوَصَلَ مَعي إِلى الشَّاطِئِ ؟ »

عَلَتْ وَجْهَهُ الدَّهْشَةُ وَقالَ : « ماذا تَقولُ ! لَمْ يَنْجُ مِنَ السَّفينَةِ أَحَدٌ غَيْرُكَ ، وَكُنْتَ وَحْدَكَ عِنْدَما قَذَفَتْ بِكَ ٱلأَمْواجُ إِلى الشَّاطِئِ . »

عُثِرَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ عَلى جُثَّةِ إِلْزِقير عَلى الشَّاطِئِ ، فَنَقَلوها إِلى النُّزُلِ وَوَضَعوها فَوْقَ ٱلمِنْضَدَةِ نَفْسِها الَّتي وُضِعَتْ فَوْقَها جُثَّةُ ابْنِهِ . وَوَقَفَ الرِّجالُ حَوْلَهُ صامِتينَ ، ثُمَّ انْصَرَفوا واحِدًا بَعْدَ ٱلآخَرِ . وَكانَ راتْسي آخِرَ مَنْ ذَهَبَ . وَبَقيتُ وَحْدي مَعَ صَديقي وَهُمومي وَ أَحْزاني .

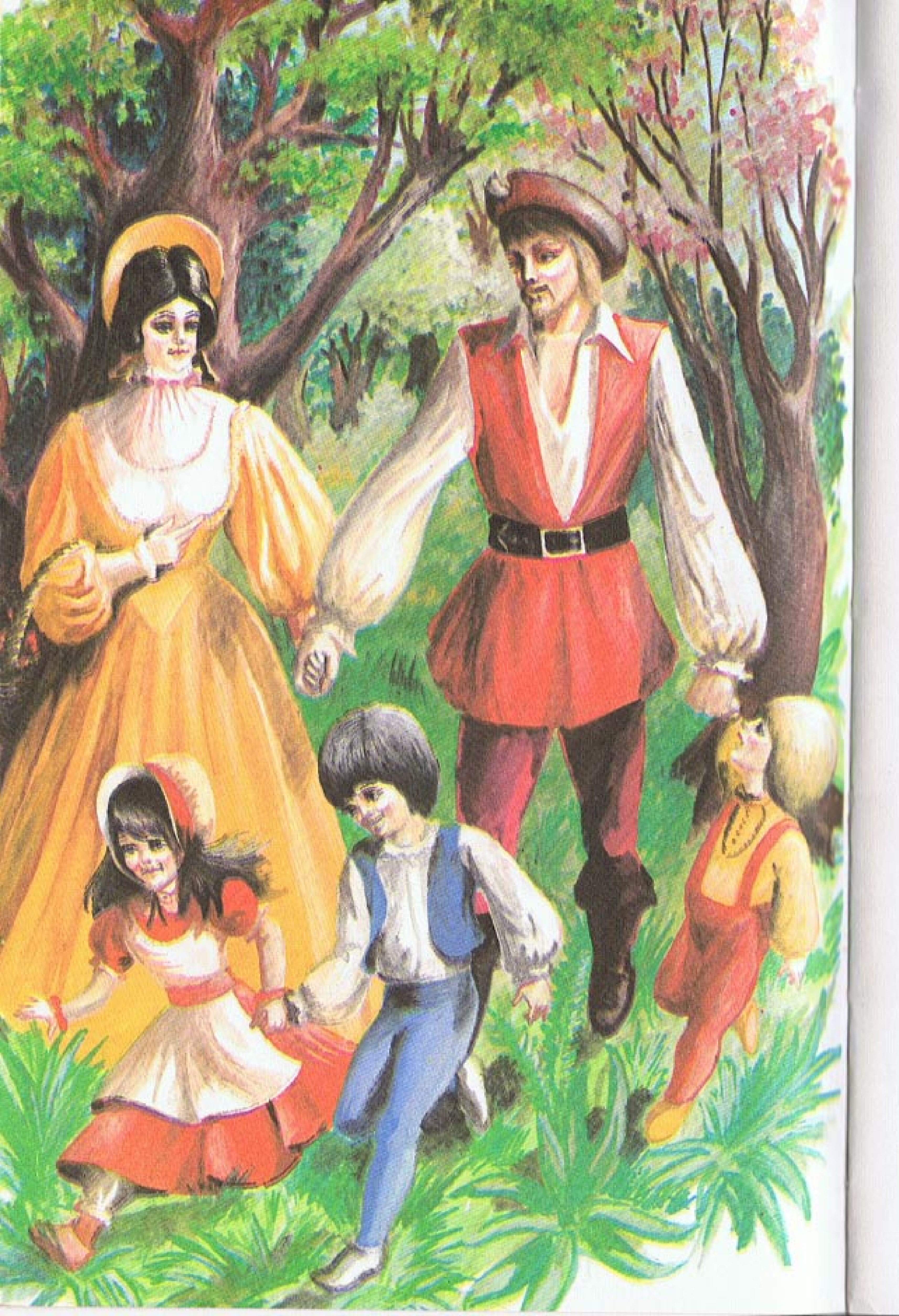
كانَتِ ٱلغُرْفَةُ مُغَطَّاةً بِالتُّرابِ لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَطْرُقْها مُنْذُ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ الَّذي

سَقَطَ فيهِ الدَّبُّوسُ . كَما كانَتْ آثارُ الشَّمْعِ لا تَزالُ باقِيَةً عَلى ٱلمِنْضَدَةِ . وَجَلَسْتُ بِجانِبِ ٱلمِدْفَأَةِ غارِقًا في بَحْرٍ مِنَ ٱلأَفْكارِ ، وَلٰكِنِّي شَعَرْتُ بِلَمْسَةٍ خَفيفَةٍ ، عَلى ذِراعي ، فَظَنَنْتُ أَنَّ راتْسي قَدْ عادَ ، وَرَفَعْتُ عَيْنَيَّ فَإِذا بي أَرى شابَّةً جَميلَةً فارِعَةَ ٱلقَوامِ واقِفَةً أَمامي تَقولُ : « جون ، جون ! أَلا تَتَذَكَّرُني ؟ أَلَمْ تَرَ الشَّمْعَةَ ٱلمُضاءَةَ ؟ أَلَمْ تَتَذَكَّرْ أَنَّ لَكَ في هٰذِهِ الدِّيارِ صَديقَةً تَنْتَظِرُكَ ؟ »

تَناوَلْتُ يَدَها قائِلًا : « عَزيزَتي غْريس ! لَمْ أَنْسَ شَيْئًا ، وَما زِلْتُ أُكِنُّ لَكِ كُلَّ حُبٍّ وَإِجْلالٍ . وَلٰكِنْ وا أَسَفاه لَيْسَ هٰذا بِمَكانٍ يَسْمَحُ لي أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنِ ٱلحُبِّ . فَأَنْتِ سَيِّدَةٌ كَريمَةٌ ، وَأَنا سَجينٌ أَحْمِلُ وَصْمَةَ عارِ السِّجْنِ . » وَأَشَرْتُ إِلى ٱلعَلامَةِ الَّتي في وَجْهي .

قالَتْ : « لا تَتَكَلَّمْ عَنِ الثَّراءِ ، فَالرِّجالُ لا يَصْنَعُهُمُ الذَّهَبُ أَوِ ٱلجَواهِرُ . لَقَدْ عُدْتَ ثَرِيًّا بِٱلأَخْلاقِ وَ الشَّرَفِ . »

وَجَلَسْنا مَعًا بِجانِبِ ٱلمَوْقِدِ نَتَحَدَّثُ . وَكُنْتُ أَتَعَجَّبُ مِنْ تِلْكَ ٱلمَرْأَةِ الَّتي اتَّسَعَ قَلْبُها ٱلكَبيرُ لِحُبِّ رَجُلٍ حَقيرٍ مِثْلي .



اَلْفَصْلُ الثَّاني وَ ٱلعِشْرون

اَلخاتِمــــةُ

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ ٱلقَليلِ مِنَ ٱلحَديثِ عَنِ ٱلماسةِ وَمَصيرِها . فَقَدْ وَصَلني ، ذاتَ يَوْمٍ ، خِطابٌ مِنْ أَحَدِ ٱلمُحامينَ في لاهاي يَقولُ إنَّ تاجِرًا يُدْعَى أَلْدوبراند أَوْصَى لي بِثَرْوَتِهِ بَعْدَ مَماتِهِ ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَرَثَةٌ ، وَقالَ في وَصِيَّتِهِ إِنَّهُ أَرادَ أَنْ يَرُدَّ ، لِجُون تِرنْشارد مِنْ مونْفِليت ، مالاً حَصَلَ عَلَيْهِ عَنْ طَريقِ ٱلكَذِبِ وَ ٱلخِداعِ ، فَقَدِ ٱبْتاعَ مِنْهُ ماسةً وَلَمْ يُعْطِهِ ثَمَنَها ٱلحَقيقيَّ ، وَأَكَّدَ أَنَّ سُوءَ ٱلحَظِّ لازَمَهُ بَعْدَ ٱلحُصولِ عَلى ٱلماسةِ ، وَعَزا ذلِكَ إلى ٱلخُدْعَةِ الَّتي ارْتَكَبَها . وَقَدْ أَرادَ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ ذَنْبِهِ ، وَيُعيدَ ٱلحَقَّ إلى صاحِبِهِ ، بَعْدَ مَوْتِهِ .

وَهكَذا اسْتَرْدَدْتُ ثَمَنَ ٱلماسةِ ، وَكَما نَصَحَتْني غرِيس أَنْفَقْنا كُلَّ ما وَصَلَ إِلَيْنا مِنْ مالٍ في سَبيلِ ٱلبِرِّ وَ ٱلإِحْسانِ .

وَكُنَّا نَتَنَزَّهُ أَحيانًا في ٱلغابَةِ ، أَنا وَزَوْجَتي غرِيس وَحَوْلَنا أَطْفالُنا الصِّغارُ : جُون ، وغرِيس ، وإلْزِفير . وَفي وَقْتِ ٱلغُروبِ كانَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تَقَعُ عَلى التِّلالِ ٱلمُحيطَةِ بِنا ، فَتَكْسُوها بِحُلَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ حَمْراءَ ، وَعِنْدَما يَأْتي اللَّيْلُ بِخُطواتِهِ الصَّامِتَةِ وَيَنْشُرُ ظِلالَهُ عَلى ٱلمَزارِعِ وَ ٱلحُقولِ ٱلخَضْراءِ . كانَ يَنْبَعِثُ مِنَ ٱلبَحْرِ صَوْتُ ٱلأَمْواجِ يُعْلِنُ أَنَّها دائِمًا مُتَقَلِّبَةٌ ، دائِمًا باقِيَـــةٌ .



الروايات المشهورة

١ ــ جين إير
٢ ــ فرانكنشتاين
٣ ــ مونفليت
٤ ــ دراكولا
٥ ــ لورنا دون
٦ ــ دكتور جيكل ومستر هايد



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 103


ARAB COMICS
عرب كوميكس
AC
www.arabcomics.net